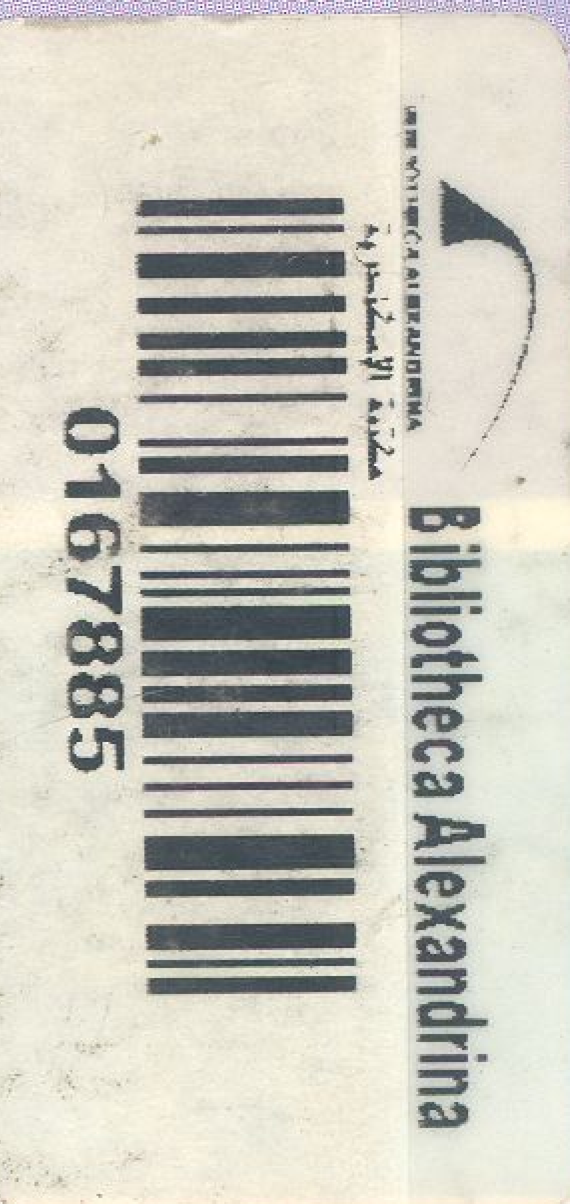
وليم شكسبير



الملك جون



تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف

نظير عبود

دار

نظير عبود

وليم شكسبير

الملك جون

تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف

نظير عبود

دار

نظير عبود

طبعة ١٩٩٠م

ص.ب : ٨٠٨٦ / ١١ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ - ٩٢٤٧١٤

اشخاص المسرحية

الملك جون.

الأمير هنري : ابنه، وقد أصبح فيما بعد هنري الثالث.

أرثور : دوق بريطانيا، ابن جوفرْوَا آخر دوق بريطانيا، إبن شقيق الملك جون.

وليم مارشال : كونت بمْبْروك.

جوفرْوَا فيتْز بيتر : كونت إسّيكس، كبير قضاة انكلترا.

غليوم لونْكْ إيبي : كونت سالزبري.

روبرت بيكوت : كونت نورفولك.

هيبوبرْتْ دي بورغ : مرافق الملك جون.

روبيرت فولْكنْبريدْج : ابن سرْ روبرت فولْكنْبريدْج.

فيليب فولْكنْبريدْج : شقيقه من أمه، لقبه اللقيط.

جيمس كورْني : خادم السيدة فولكنْبريدْج.

بيار دي بومْفْرات : عرّاف.

فيليب : ملك فرنسا.

لويس : ولي عهده.

ارشيدوق النمسا.
الكردينال بنْدولْف : مندوب البابا.
ميلون : سيّد فرنسي.
شاتيّون : سفير فرنسا لدى الملك جون.
جلّادان.
ألْيونور : والدة الملك جون، ارملة هنري الثاني.
كونْستانْس : والدة ارثور.
بلانْش : ابنة ألْفونْس ملك اسبانيا، وابنة شقيق الملك جون.
السيدة فولكنبريدْج : والدة اللقيط وروبيرت فولكنْبريدْج.

لوردات وسيدات، ومواطنون من أنجيه، ورجل أمن، وقوّاسون وموظفون، وجنود، ورسل، ومستخدمون.

(تجري الأحداث تارةً في انكلترا وطوراً في فرنسا).

الفصل الأول
المشهد الأول
في قاعة العرش داخل قصر نوزْثمْثُن.

(يدخل الملك جون وامه الملكة ألْيونور، وبمبروك وإسّيكس وسالزبري وشخصيات أخرى، ثم شاتيّون).

الملك جون : ما وراءك من الأخبار، يا شاتيّون ؟ تكلّم ماذا تريد فرنسا ؟

شاتيون : بعد التحية والمجاملة، يتحدّث ملك فرنسا بواسطتي الى جلالتك المستعارة من انكلترا.

اليونور : مقدمة غريبة. أتقول جلالة مستعارة ؟

شاتيون : إن فيليب ملك فرنسا، حسب حقوقه وبإسم أرثور بلانتاجيني ابن المرحوم اخيك جوفروا، يطالب شرعيّاً بهذه الجزيرة وبكافة أراضيها وإيرلندا وبواتيه وانجو وتورين وماين. ويسألك ان تلقي السلاح الذي يحمي جميع هذه الممتلكات المغتصبة وان تعيدها الى سلطة

الفتى أرثور ابن أخيك ومليكك المبجّل.

الملك جون : وما هي النتائج المترتّبة اذا لم أستجب طلبه ؟

شاتيون : إضطراره الى شنّ حرب دموية شرسة كي يستردّ بالقوة حقوقه المغتصبة بالقوّة.

الملك جون : نحن هنا مستعدون لمجابهة العدوان بالعدوان، ومبادلة إراقة الدماء بإراقة الدماء أيضاً، ونقابل الكيل بالكيل. هكذا أكلّفك بالردّ على فرنسا.

شاتيون : تقبّل اذاً على لساني جواب التحدّي من قبل مليكي. هذا أقصى ما باستطاعتي أن أبلّغك اياه من مشيئة من أمثّله.

الملك جون : وانا أكلفك بأن تنقل إليه قراري، واتمنى لك سلامة العودة. بيّن جوابي هذا الصريح للمسؤول في فرنسا، وإلّا اضطررت الى إسماعك رعود مدافعي قبل أن تصل انت وتبلّغه رسالتي. اذهب مسرعاً وكن بوق غضبي ونذير شؤم يتوقع خراب دياركم. دعوا سُلّة من الجند ترافقه لإكرام وفادته. عليك بالتنفيذ، يا بمبروك. الوداع يا شاتيون.

(يخرج شاتيون وبمبروك).

اليونور (للملك بصوت خافت) : ألم أقل لك، يا ولدي، ان فورة طموح كونستانس لن تهدأ حتى تشعل نار الحرب في فرنسا وسائر أقطار العالم لتأمين حقوق

ولدها. ربما امكن تجنب شرّ هذه القضية بتدبير الامور عبر بعض الاحتجاجات وتدخّلات الاصدقاء عند توسيطهم كحكم للتسوية بين ممكلتينا. ولكن سبق السيف العزل وبات المخرج الآن من هذا النفق الضيق مروّعاً ودموياً.

الملك جون (للملكة بصوت خافت) : حق الملكية والقوة الضاربة الى جانبنا، وما علينا ان نخشى اي ضرر.

اليونور (للملك بصوت خافت) : لا بل حق الملكية أرجح من القوة الضاربة. وإلّا ساءت العاقبة بالنسبة اليك واليّ ايضاً. ها هو ضميري يهمس في اذنك ما يجب ان لا يسمعه احد، ما عدا السماء وانا وانت.

(يدخل رجل أمن مقاطعة نورْثمْتُن ويقول بضع كلمات بصوت خافت لإسّيكس).

إسّيكس : يا مليكي الموقّر، تُرفع الآن إليك من إحدى المقاطعات، أغرب ما سمعت به من القضايا لتنظر وتبتّ فيها. فهل تريد أن أنادي أصحابها للمثول أمامك ؟

الملك جون : دعهم يدخلون. (يخرج رجل الأمن). ستدفع أديارنا ومصلّاتنا نفقات هذه الحملة.

(يعود رجل الامن وبصحبته روبرت فولكنبريدج واللقيط وفيليب شقيقه).

الملك جون (للاخوين) : ما هي صفتكما ؟

اللقيط : انا خادمكم الأمين، وجيه مولود في مقاطعة نورْثمْتُن، وبِكْر روبرت فولكنبريدج، على ما أعلم، وجندي اصبحتُ فارساً في ساحة القتال على يد الملك قلب الأسد الذي منحني هذا الشرف.

الملك جون (لروبرت) : وانت ما هي صفتك ؟

روبرت : ابن المذكور فولكنبريدج ووريثه.

الملك جون (يشير الى اللقيط) : أهذا هو البِكْر، وأنت الوريث ؟ لكنك لست من أمه على ما أظن ؟

اللقيط : حتماً نحن من والدة واحدة، أيها الملك القدير، فهذا أمر معروف، وكذلك من أب واحد ايضاً على ما اعتقد. ولكي تكون على يقين من صحة هذه المسألة أحيلك الى شهادة السماء وايضاح والدتي. فأنا إن خامرني أيّ شك في هذه الحقيقة يكون حالي نظير سائر اولاد آدم.

اليونور : تبّا لك، ايها الابن العاق. أنك تلوّث سمعة أمك وتجرح شعورها وتلطّخ شرفها بهذا الشك الدنيء.

اللقيط : انا، يا سيدتي ؟ كلا، ليس لديّ أي داع، بل هذه هي حجة اخي الذي لا اوافقه عليها. فإن أمكنه ان يثبت ادّعاءه، يحرمني من مورد يدرّ عليّ مبلغ خمسمئة ليرة

استرلينية على الاقل. لذا أسأل السماء ان تصون كرامة أمّي وميراثي.

الملك جون : ها هوذا إنسان صريح. قل لي لماذا يطالب شقيقك الأصغر بما يعود اليك كإرث من أبيك ؟

اللقيط : لست أدري سبباً غير الاستيلاء على ما يؤول اليّ بالوراثة. فذات يوم اتهمني بأني ولد غير شرعي. إن انا تكوّنتُ بصورة شرعية ام لا، وإن جاء هو الى هذا العالم بطريقة تختلف عني، أني أترك لوالدتي ان تجيب على ذلك حسب مسؤوليتها. ولكي أوقن بأني خلقت مثله تماماً، أرجو، يا مولاي، أن يكون التراب خفيف الوطأة على عظام من زجّني في هذه الورطة المؤسفة. ارجوك ايضاً أن تقارن بين وجهينا، أيها الملك العادل، وتحكم بنفسك في هذه القضية الواضحة المعالم. إن كان المرحوم روبرت هو حقّاً والدنا نحن الاثنين وانبثقنا كلانا من صُلبه، فلا بدّ لنا من ان نشبهه كما هو الحال عادة بين الأب وأولاده. اني أشكر السماء، وأنا اجثو على ركبتيّ لكوني لا اشبهه من كل النواحي.

الملك جون : ما هذا التفكير الملتوي الذي ألمسه في أقوالك ؟

اليونور : محياه يشبه الملك قلب الأسد، وصوته يذكّرنا بنبرة صوته. أوَلَا تجد في ملامح ولدي ما اتّصف به هذا الرجل الفذّ.

الملك جون : عيني قد تفحّصت جيداً مظاهره التي تذكّرني بصورة ريتشرد قلب الأسد تماماً. (لروبرت فولكنبريدج) قل لي، يا مغفّل، لماذا تطالب بميراث اخيك ؟

اللقيط : لان ملامحه تشبه ملامح ابي، وبموجب هذا الشبه الطبيعي، يريد أن يستولي على جميع الأراضي التي تخصني، وعلى حصّتي السنوية التي تبلغ خمسمئة ليرة استرلينية من مجموع الواردات، ويحرمني من حقي الشرعي.

روبرت : ايها الملك الكريم، عندما كان ابي على قيد الحياة استثمره اخوك كثيراً.

اللقيط : لكن هذا لا يمنحك حق الاستيلاء على ما يعود اليّ من الأراضي، رغم تداولك والعاهل في أمور كانت تهمّه آنذاك. فاغتنم الملك فرصة هذا الغياب ومكث بقرب أبي طوال تلك الفترة. أمّا كيف تسنى له ذلك، فأنا أخجل من كشف وسيلته. لكن الحقيقة يجب أن تُعلَن. كانت مساحات شاسعة من البحار والشواطئ تفصل بين أبي وأمي. وقد سمعته يوماً يقول هو ذاته لوالدي عندما حبلت أمّي بهذا الرجل الصلب الماثل أمامك وأقسم قبل وفاته ان هذا المخلوق ليس ابنه، لأنه رأى النور قبل اربعة عشر شهراً من الوقت المناسب. وبناءً على ذلك، أرجوك، أيها الملك

المنصف، أن تردّ لي كل ما يعود اليّ بالوراثة حسب مشيئة والدي.

الملك جون : يا مغفّل، اخوك ابن شرعي، وقد ولدته أمك بعد زواجها، فإن كانت قد خدعت اباك فالذنب ذنبها وحدها. وهذا أحد الأخطاء التي يتعرّض لها معظم الرجال يوم يبادرون الى الاقتران بامرأة. لنفترض ان شقيقي المتوفّي بعد ان انجب هذا الابن، كما تقول، طلب من ابيك بصفة كونه ابيه أن يؤكد الأمر، ألا تعتقد، يا صديقي، بأن والدك كان رغم كل العقبات اعترف بهذه الحقيقة ؟ اجل، طبعاً كان في وسعه ان يفعل ذلك. واذا وافقنا على كونه ابن اخي، لم يكن هذا الأخير يستطيع ان يطالب به حتى لو لم يكن الولد من صلب أبيك إذْ لم يكن بإمكان هذا الأخير أن ينكره. هذا لعمري برهان قاطع على ان ابن أمّك قد أصبح وارث ابيك. ووارث والدك يحق له ان يمتلك ارزاق أبيك بعد وفاته.

روبرت : اظن أن ارادة أبي ليس لها أي مفعول لحرماني، كما ان مشيئته لم يكن لها أي تأثير على إنجابي.

اليونور (للقيط) : هل تفضّل ان تنتسب الى اسرة فولكنبريدج، وأن تشبه اباك، او أن تكون ابن قلب الاسد المولى العالي الجبين الذي لا يملك أية أرض ؟

اللقيط : يا سيدتي، لو شاءت الأقدار أن يكون اخي مثلي وأنا مثل شقيقي، ونشبه كلانا سرْ روبرت، لكان لي فخذان مقوّسان وذراعان مفتولان مكسوّان بجلد كثوب الحيات ووجه نحيل جداً الى حدّ يجعلني لا أجسر على تعليق وردة وراء أذني خشية ان يقال عني اني لا اساوي اكثر من ثلاثة فلوس. ولو كنت فضلاً عن كل هذه الغرائب، ورثت كافة أرجاء مملكته، لما كنت ابتعدت شبراً واحداً عن هذا المكان، وإن كنت لا أحيد قيد أنمل عن رغبتي في الاحتفاظ بالوجه الذي أنعَمُ به، ولما كنت رضيت بأي ثمن أن أصبح نظير سيّدي العزيز روبرت.

اليونور : انت تعجبني، أيها الشاب النبيه. فهل تريد أن تتنازل عن ثروتك، وأن تمنحه أرضك وتتبعني ؟ فأنا كالجندي مقرّي الحالي في فرنسا.

اللقيط (لروبرت) : خذ املاكي، يا اخي. وانا اكتفي بما كتبه لي حظي من نصيب. ان ملامحك تؤمن لك خمسمئة ليرة استرلينية سنوياً. مع ذلك يمكنك ان تبيعها بمبلغ خمسة فلوس، ويكون هذا السعر غالياً (لإليونور) ساتبعك حتى الموت يا سيدتي.

اليونور : لا، انا افضّل ان تسير امامي في عكس الإتجاه نحو مراتع الحياة.

اللقيط : نحن في بلادنا اعتدنا أن نسير خلف رؤسائنا.

الملك جون : ما اسمك ؟

اللقيط : فيليب، يا صاحب الجلالة، فيليب الابن البِكْر الذي انجبته زوجة الكبير بالسنّ والصالح سرْ روبرت.

الملك جون : من الآن وصاعداً، ستحمل اسم من يشبه وجهك محياه. إركع، يا فيليب، ثم انهض وانت أرفع قدراً مما كنت عليه. انهض، يا سرْ رتشرد بلانتاجيني.

(يركع اللقيط ويمنحه الملك جون رتبة فارس).

اللقيط (ينهض ويوجه كلامه الى روبرت) : يا اخي... من جهة والدتي، هات يدك. فأبي مَنَحني الشرف، ووالدك وهبك المال. والآن، تباركت ساعة الليل او النهار التي حبلت فيها بي امي اثناء غياب سرْ روبرت والدي.

اليونور : هكذا يفكّر كل واحد من اسرة بلانتاجيني. انا جدّتك يا ريتشرد، فلا تبخل عليّ بهذا الاسم.

اللقيط : انت جدّتي، بالصدفة، يا سيدتي، وليس بالحقّ. لكن هذا لا يهمّ. لأن الامرَ واحد في كلا الحالين، وإن كان ذلك من باب المجاملة. اذ سيّان عندي إن دخل الانسان من الباب أو من النافذة. فمن لا يجسر على التحرّك في وضح النهار لا بد له من ان يتسلّل تحت جنح الليل. عليك ان تسلك الطريق الذي يعجبك، والمهم ان تثبّت أقدامك. فمن قريب أو من بعيد،

لكي تصيب الهدف، عليك ان تسدّد سلاحك اليه.
واذا تصرّفت كيفما تسنى لك، أظل أنا كما كنت.

الملك جون : (لروبرت) : هيا يا فولكنبريدج، فقد حصلت على ما تتوق اليه، واصبحت فارساً بلا مال، اي سيّداً تابعاً لا متبوعاً. (لوالدة الملك) تعالي، يا سيدتي، لنمضي بسرعة. هيا إلى فرنسا، الى فرنسا. الأمر يستوجب العجلة.

اللقيط (لروبرت) : وداعاً، يا اخي. اتمنى لك حظًّا سعيداً. لانك اتيت الى هذا العالم عن طريق المروءة والشهامة.
(يخرج الجميع ما عدا اللقيط الذي يواصل كلامه وحيداً) لقاء الخطوة الشريفة التي قمت بها خسرت مواطىء اقدام كثيرة. لذلك اصبحت الآن قادراً على جعل جينون سيدة جليلة. مساءً سعيداً، يا سرْ ريتشرد، حفظك الله، يا صديقي. واذا كان من يكلمني اسمه جورج سأناديه بطرس. لان الارتقاء الحديث العهد ينسيك اسماء الناس. وانت بحاجة الى كثير من الانتباه واللياقة لأذكّرك بها في وضعك الجديد. ها قد حضر احد المسافرين. سأدعوه الى تناول الطعام بصحبتي. وعندما أملأ بطني امتصّ اسناني وأوجّه حديثي الى شخص انيق من تلك البلاد البعيدة، وأقول له، وانا استند الى كوعي : سيدي العزيز، هذا هو السؤال المطلوب ان تردّ عليه، كما ورد في كتاب التعليم الديني. يا سيدي، كلنا، بأمرك وبتصرفك، مستعدّون

لإداء كل خدمة. لكن الجواب جاء : كلّا يا سيدي الكريم، انا في خدمتك. وقبل ان تعرف الجواب وما يقتضيه من ردّ، تختصر تبادل المجاملة، ثم يدور حديثك على جبال الألب، وجبال أبينّان والبيريني والبو. وعندما تنتهي من هذه المهمة، يكون وقت تناول العشاء قد حان. هذا هو المجتمع الصالح الذي يناسب ما ارجوه من الأماني الطيّبة. اما اللقيط الحقيقي في ايامنا الحاضرة وأنا مثله مهما فعلت، فهو الشخص الذي يصدر عنه موقف غير مأنوس، ويكون مميّزاً لا في تصرّفه ونفوذه وسحنته ومظهره الخارجي، بل بحركاته الحميمة، وهو الذي يألف دسّ هذا السمّ اللطيف الشهي الطعم في عرف اهل العصر، ألا وهو الكذب. لا بدّ من إجراء دراسات على هذا السمّ لا لإتقان طريقة استعماله بل لاتّقاء اذاه لأنه سيعمّ ويحتلّ كل درجات الإرتقاء. ولكن من هو الآتي بمثل هذه السرعة ممتطياً متن حصان ؟ أو بالأحرى من هي هذه الزائرة ؟ اليس لها من زوج يريد أن يتحمّل عناء وضع سياج حولها ؟ يا الهي، هذه هي والدتي.

(تدخل السيدة فولكنبريدج وجيمس وكورني)

اللقيط : يا سيدتي، ماذا أتى بك الى البلاط بمثل هذه العجلة ؟

السيدة فولكنبريدج : أين أخوك ؟ أين هو هذا المغفّل الذي يلوّث هكذا شرفي ؟

اللقيط : أخي روبرت، هو إبن سرْ روبرت العجوز، هذا الجبار القوي المدهش. هل تبحثين هكذا عن ابن سرْ روبرت ؟

السيدة فولكنبريدج : ابن سرْ روبرت، اجل، هذا الصبي الوقح، هو سرّ أبيه. لماذا تهزأ بسرْ روبرت ؟ وهو ابن الرجل المذكور، مثلك أنت أيضاً ؟

اللقيط : أتريد أن تتركنا وحدنا، يا جيمس كورْني ؟

كورْني : بكل طيبة خاطر، يا فيليب.

اللقيط : لماذا هذا الصراخ الحادّ، يا فيليب ؟ هل علمت، يا جيمس، بما يسري الآن من شائعات مزعجة ؟ سأزوّدك بعد لحظة بكافة تفاصيلها. (يخرج كورني) يا سيدتي، انا لست ابن سرْ روبرت العجوز. فهذا الرجل كان باستطاعته ان يأكل حصتي برمّتها يوم الجمعة العظيمة بدون أن يَنقُضَ صيامه. وكان بإمكانه أن يتصرّف بصورة مقبولة. لكن، لنتكلّم بصراحة، هل كان قادراً على انجابي ؟ كلّا، ان سرْ روبرت لم يكن قادراً. لأننا كلّنا نعرف تمام المعرفة إمكانيّاته المحدودة. فإذاً، يا والدتي، لمن أنا مدين بجسمي هذا ؟ حتماً لم يكن سرْ روبرت يقوى على تكوين ساق كهذه.

السيدة فولكنبريدج : هل أصبحت تتحدّث نظير اخيك، انت المفروض أن تدافع عن شرفي ؟ فما معنى هذه الوقاحة والحقارة، ايها الولد العاق؟

اللقيط : بل قولي : يا فارس. فقد اصبحت الآن فارساً، يا امي المحترمة، كما هو حال سيادة باسيلسْكو. نعم، نعم، لقد منحت رتبة فارس. وانا لا ازال اشعر حتى الساعة بالسيف الذي لامس كتفي اثناء الاحتفال بهذا الترفيع. لكني لست ابن سرْ روبرت، يا والدتي. لقد تنصّلتُ منه وتنازلت عن ميراثي. وهكذا تخلّيْت عن شرعيتي وعن اسمي. لذا أرجوك، يا أمي، أن تعدّدي لي صفات أبي، آملاً ان يكون رجلاً يناسبني.

السيدة فولكُنبريدج : هل تنصّلت من أسرة فولكنبريدج ؟

اللقيط : تماماً كما أتنصّل من الشيطان الرجيم.

السيدة فولكنبريدج : الملك ريتشرد قلب الاسد هو والدك. وعندما لاحقني طويلاً بإلحاح واستمرار، توصّل الى إغوائي، فأفردت له مكاناً في سرير زوجي. وأنا الآن ألتمس من السماء ان لا تحاسبني على هذه الهفوة. وكنت أنت ثمرة هذه الغلطة العزيزة التي طغت على ارادتي.

اللقيط : على هذا الضوء، يا سيدتي الوالدة، إن كان مجيئي الى هذه الدنيا محتّماً، انا لا أتمنى أن يكون لي أب أفضل منه. ان لبعض الذنوب امتيازات على هذه

الارض، وخطيئتك هي من هذا النوع. أؤكد لك ان زلّتك لا تمتّ الى الهوس بأية صلة. وهل كان باستطاعتك ان لا تسلّمي قلبك كعربون خضوع لحب ملكي، لريتشرد هذا الذي لم يجرؤ الأسد الجسور على مواجهة غضبه وقوّته التي لا تضاهى والتي لم يتسنَّ لها ان تنجّي فؤاده الملكي من سحر عينيك. أجل، يا أماه، أنا أشكرك بكل جوارحي على مسايرتك عواطف والدي. اذ ليس بين الأحياء من يستطيع ان يصرّح بأنك أسأت التصرّف في انجابي، وإلا ألْقيتُ بروحه الى أعماق الجحيم. تعالي، يا سيدتي. أودّ أن أقدّمك الى اسرتي، فيهتف كل الناس : لو كنتِ رفضتِ حب ريتشرد يوم اصبح أبي، لارتكبتِ افدح الأخطاء. وكل من يدّعي ان مطاوعتك كانت غلطة يكون متحاملاً كاذباً، واصرخ في وجهه : إن قوله هذا غير صحيح.

(يخرجان).

الفصل الثاني
المشهد الأول
أمام سور انجيه في فرنسا.

(يدخل من جهة على رأس الجنود أرشيدوق النمسا مرتدياً جلد اسد، ومن جهة أخرى فيليب ملك فرنسا وجنوده، ثم لويس وكونستانس وأرثور ورجال الحاشية)

لويس : (للارشيدوق) : أنا سعيد بمقابلتك امام اسوار انجيه، ايها النمساوي الشجاع. وأنت، يا ارثور، يا من انتزع ريتشرد سلفك الكبير قلب الاسد، وخاض غمار الحروب المقدسة في الشرق، قد اضجعت هذا الدوق في مثواه الاخير قبل الاوان، حين شاء ان يؤمن حقوق خلفائه. فجاء الى هنا بناءً على إلحاحنا كي ينشر أعلامه لصالحك، يا ولدي، ويعاقب عمك الانكليزي المغتصب ويردّ لك ما سلبك اياه أقرب أقربائك. تعال عانقه وتودّد اليه واحتفِ بشخصه الكريم.

ارثور : (للارشيدوق) : أبقاك الله بعد موت قلب الأسد. بما

انك مدين لأبنائه وانت ترعى حقوقهم بأمانة اثناء الحرب، فأنا ارحّب بك وأصافحك بيد صديقة وبقلب حافل بالحب الصافي. فأهلاً بك، أيها الدوق امام أبواب أنجيه.

لويس : (لارثور) : ايها الولد النبيل، من لا يريد ان يساند حقوقك ؟

الارشيدوق : (يعانق ارثور) : بهذه القبلة الحارة التي أطبعها على وجنتك، أؤكد لك عهد المودّة الذي قطعته على نفسي بأن لا أعود الى بلادي قبل ان تعلن لك الولاء مدينة انجيه وسائر ما يعود اليك من مقاطعات فرنسا، وهذا الساحل الابيض الساحر اللون الذي يدْحَر مدّ المحيط المزمجر ويجعل سكان هؤلاء الجزر يبتعدون عن كافة البلاد ولا سيما انكلترا التي يحميها البحر كسياج منيع، هو ساحل طويل يقوم كجدار عند الشواطئ ويصونها من مثل هذه المحاولة الأجنبية الى الابد. إنِ هذه البقعة تحيّيك من أقصى الغرب كمليكها المبجّل. وأنا، حتى الآن، أيها الولد الوسيم، لم افكرّ في الرجوع الى بيتي، ولم أُلْقِ سلاحي.

كونستانس : (للارشيدوق) : إقبل شكري انا امّه الارملة بانتظار يوم تتوصل فيه يده المستقوية الى منحه الصلابة اللازمة كي يفيك ما يتوجّب عليّ لقاء اخلاصك الذي تبديه نحوي.

الارشيدوق : السماء من نصيب الذين يشهرون سيوفهم في حرب عادلة منصفة كهذه.

الملك فيليب: هيا اذاً الى القتال. سنوجّه مدافعنا الى جبهة هذه المدينة المقاومة. ألَا استدعوا أمهر مهندسينا لاختيار انسب المواقع لهجومنا. حتى إن اضطررنا الى ترك عظامنا الملكية هنا أثناء شق طريقنا بسفك دمائنا الفرنسية في الساحات الرئيسية التي سنخضعها الى مشيئة هذا الولد.

كونستانس : انتظروا الجواب الموجّه الى سفارتكم، اذا لم تريدوا أن تلوثوا شهامتكم بالهمجية. فان السيد شاتيون يستطيع ان يحصل بالطرق السلميّة على ما تطالب به انكلترا من حقوق. حينئذٍ لن نندم ولن نريق نقطة دم هدراً كمساهمة شرسة ظالمة.

(يدخل شاتيون)

الملك فيليب: هذا امر عجيب، يا سيدتي... انظري ها هو الرسول شاتيون قد وصل حسب رغبتك. وما ترمي اليه انكلترا، ها هي تعلنه بإيجاز. ايها المولى النبيل، كنّا ننتظرك مترقّبين، فتكلّم، يا شاتيون.

شاتيون : هيا، فكّوا حصاركم عن هذا الموقع غير الحصين، ولتتولَّ قوّاتكم مهمةً أجدى. فالانكليز وقد أثارت طلباتكم المجحفة قلّة صبرهم، سرعان ما لجأوا الى

السلاح. والرياح المعاكسة التي أحسّوا بها امّنت لهم فرصة انزال فرقهم الى هذه البقعة حين وصولي اليكم. وهم يستعجلون في زحفهم على المدينة باعدادهم الوافرة وجنودهم الواثقين من تفوقهم وتغلّبهم. ومعهم الملكة الام يحدوها حب الانتقام الذي جعل الدم يغلي في عروق رجالها، وبصحبتها ابنة اخيها السيدة بلانش الاسبانية، وكذلك لقيط من صلب الملك الراحل. وهكذا ترى جميع مغامري المنطقة متحمّسين باعتداد وبسالة قتالية نادرة، وقد تركوا راحتهم وهدوءهم في ديارهم وحملوا اطماعهم وشدة بأسهم وجاؤوا الى هنا يطلبون الفوز المجيد الذي يطمحون اليه فضلاً عمّا يدفعهم من شجاعة النخبة التي تحوم في سماء الإندفاع الديني. (تقرع الطبول). ها هي طبولهم تدعم شرحي حول موضوع تأهبهم القائم على قدم وساق بدافع القتال والظفر. لذا احرّضكم على التأهب لمواجهتهم كالابطال.

الملك فيليب : كم هي حملتهم العسكرية هذه غير متوقعة.

الارشيدوق : وبمقدار ما هي غير منتظرة، علينا أن نضاعف همّتنا وقدرتنا على الزود عن انفسنا. لان الفرصة تزيد فعالية الشجاعة والإقدام. فأهلاً بهم وسهلاً نحن على أتم الاستعداد لمجابهتهم.

(يدخل الملك جون والملكة الام اليونور وبلانش
واللقيط وبمبروك وعدد من الجنود.)

الملك جون : نتمنى السلام لفرنسا، اذا كانت فرنسا السلام تدعنا نحصل على حقوقنا الشرعية في الارث. وإلّا، لا بد لها من ان تستنزف دماءها حتى يبلغ صراخها عنان السماء، بينما نحن مظهر الغضب الإلهي نلومها هي المزدرية الوقحة التي ترفض ما نعرضه عليها من سلام.

الملك فيليب : ونحن ايضاً نتمنى السلام من جهتنا لإنكلترا، اذا رجع محاربوها من فرنسا الى انكلترا ليعيشوا هناك بوئام. نحن نحب الانكليز، وفي سبيل سلام انكلترا نكدّ هنا ونتعب تحت وقر الدروع التي تحمي صدورنا من ضربات العدى. هذه المهمة التي تقع على كاهلنا يجب أن تكون شغلك الشاغل. لكنك بعيد جداً عن ان تحب بريطانيا التي انقلبت على مليكها الشرعي الحديث السنّ. وقد قوّضتَ تسلسلِ وراثة عرشه وانت الآن تسيطر على سلطته الفتية وتغتصب حقه بالتاج. (يشير الى ارثور) هل تتذكّر محيّا اخيك جوفروَا ؟ ان هاتين العينين وهذه الجبهة تطابق تماماً عينيك وجبهتك. ففي قسمات وجهك تتجلّى العظمة التي ماتت في ملامح جوفروا، ويد الزمان تضفي على

هذا الانجاز عظمة لا تضاهى. فعندما ابصر جوفروا النور كان هذا شقيقك البكر ثم تلاه ابنه في الوجود. وكانت انكلترا من حق جوفروا، وحق هذا هو من حقوق ارثور طبعاً بنعمة الله. فكيف تسنّى لك ان تصبح انت ملكاً ؟ عندما لا يزال الدم ينبض في عروق صاحب الحق، والحياة تملأ جوارحه، لمن يعود التاج الذي تطمع أنت به ؟

الملك جون : ممّن استمدّت فرنسا هذه السلطة العليا التي تتذرع بها لتطالبني بالاجابة على أسئلتك ؟

الملك فيليب : مَن الديّان العادل الذي يملي على الأذهان سلطته القادرة، ومن الفكر السديد الذي ينظر في قضايا المعاصي والذلّات والتطاول على القانون. فهذا الديان اقامني حارساً على مصالح هذا الولد، وبموجب حقوقه انا اتهمك بالعدوان، وبعونه تعالى أتذرّع لأنزل بك اقصى العقوبات.

الملك جون : تبّاً لك من ظالم مستبدّ، تريد ان تغتصب هذه السلطة.

الملك فيليب : اسمح لي... انا الذي أضع كل مغتصب عند حدّه.

اليونور : (للملك فيليب) : اتعتبر فرنسا مغتصبة ؟

كونستانس : (للملك فيليب) : دعني اردّ على هذا السؤال. (للملكة الام) : ابنك هو المغتصب.

اليونور : اغربي عن وجهي، أيتها الوقحة. انت تريدين ان يكون لقيطك هو الملك لكي يتسنى لك، على ما أرى، أن تكوني ملكة وتسيطري على الجميع.

كونستانس : سريري كان دوماً طاهراً وأميناً لإبنك، كما كان سريرك بالنسبة الى زوجك. وهناك شبه كبير بين ملامح هذا الولد وأبيه جوفروا، نظير التقارب الموجود بينك وبين جون الذي يشبهك كما تشبه قطرة المطر مجموع المياه التي خرجت منها، وكما يشبه إبليس والدته. تقولين ان ابني لقيط. أقسم لك بروحي، ان والده لم يأتِ الى هذه الدنيا بطريقة أشرف واسمى منه. ولَمَا كان أبصر النور لو لم تكوني والدته.

اليونور : (لأرثور) : هذه أم مشبوهة، ايها الولد، تلوّث سمعة أبيك.

كونستانس : وهذه جدّة لئيمة، أيها الحفيد، تريد ان تلطّخ سمعتك.

الارشيدوق : إهدأوا، يا جماعة.

اللقيط : (يشير الى الارشيدوق) : أصغوا الى ما يعلنه المنادي.

الارشيدوق : (للقيط) : من أين أتيت، أيها الشيطان ؟

اللقيط : من الجحيم الذي ستهرول اليه، يا سيدي. ولو أمسك بك إبليس على انفراد لسلخ جلدك عن لحمك وسحق عظامك. (يشير الى جلد اسد يرتديه الارشيدوق تحت

درعه) انت الثعلب الذي تروي القصة حكايته وهو غير قادر إلّا على لمس الاسد الميت من ذنبه. سأخضّب بالدم جلدك ان أمسكت بك. وأنا مستعد لأن أهشّم رأسك، يا صاح، فكن على حذر.

بلانش : فعلاً، يليق جلد الاسد بمن اختلسه منه ليتباهى به.

اللقيط : حقاً، هذا الجلد يليق به نظير نعل ألْسِيد الكبير حين لبسه حافر الحمار. لكنني سألقي بهذا الثقل عن كتفك، يا حماري، أو أضيف اليه حملاً آخر يقصم ظهرك.

الارشيدوق : من الذي سيقصم ظهري ويصمّ أذنيّ بمثل هذه الضجة الصاخبة ؟ أيها الملك فيليب، عليك أن تقرّر ما يجب ان نفعله.

الملك فيليب : أيتها النساء، ويا أيها المجانين، كفّوا الآن عن حديثكم. أيها الملك جون، هذا هو برنامج عملنا : بإسم ارثور اطالبك بتسليمنا انكلترا وايرلندا وانجو وتورين وماين. فهل تريد ان تتنازل لنا عنها وتلقي السلاح ؟

الملك جون : لن أفعل ذلك، وأنا على قيد الحياة. اني أتحدّاك، يا فرنسا، وأنذرك انت أيضاً، يا ارثور بريطانيا. ليضع كل منكما نفسه بتصرفي، فتنالا من يدي اضعاف ما قد تنتزعه مني يد فرنسا الجبانة. استسلم ايها الولد.

اليونور : تعالَ الى جدتك، يا حفيدي العزيز.

كونستانس : اجل، ليذهب هذا الصبي الى جدته ويسلمها مملكته، لتعطيه خوخةً وكرزة وتينة. وما أكرمها من جدة سخيّة.

اليونور : (لكونستانس، بينما هو يبكي) : كفاكِ كلاماً، يا أمّاه. كم أتمنى أن أتمدّد في قبري لأني لا استحق اثارة كل هذه المشاكل حول شخصي.

اليونور : لقد اخجلته تصرفات امه المنحطّة، وا ولداه، حتى سالت دموعه على وجنتيه.

كونستانس : (للملكة الام) : إن كان هذا صحيحاً أو لا، فذلك على كل حال عار عليك. ان ما يؤلمه هو المذّلة التي جرّتها عليه جدّته لا امّه. وما تزرفه عيناه من الدمع تجعل السماء ترثي لحاله وتعتبره نوعاً من التعويض عليه. أجل، سينصفه مَن في العلاء إذْ يقتص منكم عمّا سببتموه له من المآسي.

اليونور : يا لك من مجرمة تغتابين الارض والسماء معاً.

كونستانس : أنت تشتمين السماء والأرض، فلا تتهميني بما لست مسؤولة عنه. انتِ وعزيزك جون قد اغتصبتما الاملاك والتاج والحقوق التي تعود الى هذا الغلام المظلوم. هو ابن ولدك البكر، ولم يحلّ به كل هذا الشقاء إلا على يدك. وذنوبك قد ارتدّ صداها على هذا الولد

المسكين. فاقتصّت شريعة السماء منه لأنه يشكّل الجيل الثاني الذي خرج من احشائك المدنّسة.

الملك جون : كفى ثرثرة، ايتها المرأة المهووسة.

كونستانس : هذه كلمتي الأخيرة في هذا الموضوع. (للملكة الام) لم يصبه فقط رذاذ معصيتك بل جعل الله شخصك وخطيئتك مجلبة عار وقصاص لابنائك واحفادك الذين لحق بهم عقابك. ولولاك لما حلّ بهم أي اذى. فجريرتك سبّبت اذلالك واذلاله في آن واحد. وهي المدية المسلّطة على رأسه. فكل قصاصك اضحى من نصيب هذا الولد المسيكن، بينما أنت المسؤولة والوحيدة عن ذنوبك. ولا يستحق القصاص احد سواكِ.

اليونور : ايتها اللائمة المتسرعة، ألَا تدرين اني قادرة على كتابة وصية خاصة تجرم ابنك من جميع ألقابه ؟

كونستانس : من يشكّ بذلك من قبَلكِ ؟ أنت لا تتردّدين في كتابة وصية مزوّرة تعبّر عن مشيئة امرأة منحطة مستهترة وجدّة مستبدة جائرة.

الملك فيليب : اسكتي، يا سيدتي، وكفّي عن تطاولك والزمي الاعتدال. فانا لا أريد أن أشجّع في حضوري مثل هذه المهاترات المهينة. دعوا ألحان الموسيقى ترافق حتى الاسوار رجال انجيه الشجعان الذين يأتون الى هنا،

لِيُعلنوا أي فريق يقبلون، وأي طرف يؤيّدون، أرثور أم جون ؟

(ينفخ البوق ويظهر مواطنون من انجيه عند الاسوار).

مواطن : مَن الذي يستدعينا الى هذه الأسوار ؟

الملك فيليب: فرنسا تودّ ان تطّلع على رأيكم بخصوص انكلترا.

الملك جون : بل بالعكس، هي انكلترا بإسمها الشخصي، تطلب ذلك. فيا رجال انجيه، يا رعاياي المحبوبين...

الملك فيليب: يا رجال انجيه رعايا ارثور المعزّزين، استدعتكم ابواقنا لنتبادل الآراء سلمياً...

الملك جون : وذلك طبعاً لصالحكم. فاعرفوا اذاً أوّلاً ان أعلام فرنسا المرفوعة امام انظاركم وتجاه مدينتكم لم تحضر إلا للإضرار بكم. وهذه المدافع المحشوّة حقداً ونقمةً قد نُصبت حولكم، وهي على اتمّ الاستعداد لتقذف جدران منازلكم بالنار والدمار. وجميع التأهّبات الفرنسية قائمة لضرب حصار هدّام حول اسوار مدينتكم ولاقتحام بيوتكم المحصّنة، ولولا مساهمتنا الفعّالة لكانت الحجارة الصامدة التي تحيط بكم كالحزام انهارت فوق رؤوسكم بفعل ارتجاجات مدفعيتهم التي كانت احدثت ثغرة كبيرة تمكّنهم من هدر دمكم وسلب راحتكم وامانكم. لكنّني بصفتي مليككم الشرعي جئت مع رجالي

لإحباط مساعيهم امام ابوابكم، ولإنقاذ مدينتكم من الذل والخراب الذي يهدد كيانكم. لكن بفضلنا ها هم الفرنسيون، والدهشة مرتسمة على وجوههم، يفاوضوننا الآن بدلاً من ان يرموكم بقنابلهم ويهدموا اسواركم وينشروا الفوضى والهلع في دياركم، بل يوجّهون اليكم حلو كلامهم يغلّفه الغمام الابيض الذي يحجب عنكم غلطتهم المميتة. فنرجوكم ان تمنحوهم ايها المواطنون، ما يستحقّونه من ثقتكم الغالية ودعونا نحن ندخل. فان ملككم وقوّاته المنهوكة من جراء السير الطويل، يلتمس منكم ملجأ داخل اسوار مدينتكم.

الملك فيليب : (يمسك بيد ارثور) : بعد أن أتكلم، تجيبنا نحن الاثنين. انظروا، ان من تمسك به يدي اليمنى في ظل أقدس الوعود، هو الشاب بلانتاجيني بكر شقيق هذا الرجل الذي يودّ أن يملك عليه وعلى جميع اراضيه. ولأجل السيادة المنتهكة امام مدينتكم، جئنا نطأ هذه السهول بأقدام متثاقلة، ونحن لسنا اعداءكم ما دامت غيرتنا المنصفة التي تشمل هذا الولد المظلوم تحرّضنا على نجدتكم بروح العطف والإنسانية. فالمطلوب منكم ان تقرّروا مناصرة من يستوجب حقكم ان تساندوه اعني به هذا الأمير الصغير. عندئذ تنطلق

اسلحتنا الشبيهة بدبّ كان مكموم الشدق، لتمزق اعداءكم، فيبلغ دويّ مدافعنا عنان السماء. ثم بعد تأمين الهدوء ننسحب برفق وبدون ان تفلّ سيوفنا أية آفة. أو يصيب خوذنا اي شرخ. سنعود الى بلادنا بعد حقن الدماء التي أتينا لإراقتها في سبيل صيانة مدينتكم موطّدين استتباب الأمن حفاظاً على اولادكم ونسائكم. لكنكم اذا رفضتم عرضنا بإمتهان، فإن اسوارنا العالية تضمن حياة من نرسلهم الى الحرب وتصون ايضاً كيان جميع الانكليز اللاجئين الى فيء مقرّاتهم الأمينة. تكلموا اذاً. هل نأمل بأن نكون سادة مدينتكم التي جئنا نطالب بها لصون كرامتكم ومصلحتكم ؟ ام يتحتم علينا ان نُفلت غضبنا من عقاله ونخوض في الدماء على ارض تصبح من ممتلكاتنا.

المواطن : سأختصر الردّ : نحن رعايا ملك انكلترا، وفي سبيله وللمحافظة على حقوقه نتشبّث بدخول هذه المدينة.

الملك جون : اذاً قرّرتم مناصرة الملك دعوني أدخل.

المواطن : لا نستطيع تلبية طلبك. ولا يسعنا ان نعلن ولاءنا إلّا للذي يتمكن من إثبات حقوقه الملكية. وحتى ذلك الحين، سنظل محصّنين خلف ابوابنا واسوارنا في وجه العالم كله.

الملك جون : ألا يُثبت تاج انكلترا على رأسي مَلَكيّتي انا ؟ واذا كان هذا لا يكفي سأجلب لكم ثلاثين الف شاهد شجاع من الانكليز الاقحاح.

اللقيط : (على حدة) : أيْ من اللقطاء وسواهم.

الملك جون : انا على اتمّ الاهبة لتثبيت لقبي ببذل حياتي وحياة رجالي.

الملك فيليب : الديك كل هؤلاء البواسل الكرماء الأصل ؟ وهل أنت واثق من ولائهم لك ؟

اللقيط : (على حدة) : لا بدّ من ان يكون بينهم بعض اللقطاء.

الملك فيليب : اجل، وهم هنا لتكذيبه.

المواطن : الى ان تقرروا مَن هو صاحب اللقب الاصيل الذي يستحق الفوز، نحن نصرّ بإسم الأصلح على ان نحجب عن كليهما هذا اللقب الذي يتنازعان عليه.

الملك جون : اذاً، فليغفر الله ذنوب كل من ينتقل، عند تساقط ندى الصباح، الى مقره الابدي في السماء، اذا رفض الخضوع لملك بلادنا الرهيب.

الملك فيليب : آمين ثم آمين. هيّا امتطوا صهوة جيادكم، ايها الفرسان، وجهزوا اسلحتكم.

اللقيط : ايها الفارس القديس جاورجيوس، انت الذي صرعت التنّين، ومنذ ذلك الحين ربضتَ على ظهره عند باب السماء مضيفتي، علّمنا كيف نسدّد ضرباتنا بإحكام.

(للارشيدوق) يا صاح، لو مكثت أنا في عرينك بصحبة لبوءتك لأضفت الى جلد الاسد الذي ترتديه انت رأس بهيمة ذات قرنين وجعلتُ منك مسخاً فظيعاً.

الارشيدوق : هدئوا روعكم. كفاكم مهاترة.

اللقيط : ارتعدوا وارتجفوا، يا سامعي زئير الاسد.

الملك جون : هيا نتوجّه الى السهل حيث نتفقّد صفوف فيالقنا وننظّمها.

اللقيط : عجلوا اذاً لنأخذ أفضل الاستحكامات في ساحة القتال.

الملك فيليب : (يكلم لويس بصوت خافت) : اجل، اجل، وأنت فوق المرتفعات، عليك ان تجهز الاحتياطي... فلنتكل على الله لصيانة حقوقنا

(يخرجون).

(تسمع الموسيقى، وتتحرك الجيوش ثم تنسحب. يتقدم المنادي الفرنسي على صوت البوق نحو أبواب انجيه ويخاطب المتسارعين نحو الاسوار).

المنادي الفرنسي : يا رجال انجيه، افتحوا ابوابكم على مصراعيها واستقبلوا ارثور الشاب دوق بريطانيا. فقد جاء متأبطاً ذراع فرنسا ليُسيل فيضاً من دموع الامهات الانكليزيات اللواتي اصبح اولادهن في عداد سكان القبور الملطّخة بدمائهم، بينما تنهمر عبرات الارامل

اللواتي يعانقن جثث ازواجهن الباردة المبعثرة على الارض المخضّبة بالدماء. لقد رقص الفرنسيون المنتصرون، وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم اثناء دخولهم مدينتنا كفاتحين لإعلان أرثور بريطانيا ملكاً على انكلترا وعلينا ايضاً.

(يدخل المنادي الانكليزي وصوت الابواق يملأ الفضاء).

المنادي الانكليزي : تراجعوا، يا رجال انجيه واقرعوا أجراسكم. فالملك جون ملككم وملك انكلترا يقترب ظافراً في هذا اليوم الحارّ القاسي. ودروعنا المبتعدة من هنا تلمع كالفضة تحت وهج النور وتعود ملوّثة بدماء الفرنسيين. ليس هناك من ريشة تزيّن خوذة انكليزية لم يصبها رمح فرنسي بعطب. وأعلامنا عادت الى الأيدي عينها التي رفعتها لتخفق فوق رؤوسنا، ونحن نزحف، ونظير فرقة مرحة من القنّاصين وصل جنودنا الانكليز الاشداء وأيديهم ملطخة بدماء اعدائهم المجندلين على الارض. إفتحوا ابوابكم ودعوا المنتصرين يدخلون.

المواطن (من أعلى الأسوار) : ايها المنادون من أعلى الأبراج، لقد تمكّنّا من رؤية اصطدام الجيشين وتقهقرهما منذ البداية حتى النهاية. ولم يشكّ احد بتعادلهما حتى الخبراء المحنّكون أجمعوا على ذلك. فالدم دفع فدية

الدم وردّت الضربات صلابة الضربات، وقاومت القوة هول القوة، وعاندت السلطة صمود السلطة. واذا بالخصمين يتوازيان، ونحن نحبّهما معاً سوءً بسواء. لكن لا بدّ لاحد الفريقين من ان يتغلب على الآخر. لأنهما إن ظلّا على هذا التوازن سنحتفظ بمدينتنا ولن يستولي عليها احد بمفرده، بل تبقى صديقة كليهما معاً.

(يدخل الملك جون ويتبعه جيشه وبلانش والملكة الأم اليونور واللقيط من جهة، ولويس والارشيدوق من جهة اخرى).

الملك جون : (للملك فيليب) : ألا يزال دمكِ ينزف، يا فرنسا ؟ وهل ستدعين حقوقنا تضيع هكذا هدراً ؟ هذه الحقوق التي تستبيحين مجراها بما تقيمينه في طريقها من عقبات، وتتركينها تحيد عن سيرها العادي.

الملك فيليب : وانتِ، يا انكلترا لم تحقني نقطة واحدة من الدم اكثر مما فعلنا نحن الفرنسيين، في هذه المعركة الحامية الوطيس، بل خسرت اكثر منا. أُقسم على ذلك بساعدي الذي يحكم المنطقة بعدل ويكيّف مناخها المتقلّب. ألا اعلمي اننا لن نُلقي سلاحنا الذي فرضتْ علينا العدالة حمله، قبل ان نخضعكِ انت التي أشهرناه في وجهك، وان نضخّم عدد القتلى الموالين لك، ونوسّع لائحة خسائرك في هذه الحرب الضارية

ونقرنها بإسم ملك ارتبط بهذه المجزرة الرهيبة.

اللقيط : آه، كم إرتجّ مجدك، يا صاحب الجلالة، فعندما يتضاعف نزف دم الملوك بوفرة في جحيم المعركة، فالموت يبالغ في مضاعفة عدد مَن تتلقّفهم أشداق الحرب المتلهّفة الى الضحايا، ولها من سيوف الجنود أسنان وأضراس هائلة تمزّق لحوم البشر وتبتلعها بشراهة، منتهزةً فرصة خلافات الملوك وعداواتهم المزمنة. فلماذا تظل هذه الجباه الجليلة مطأطأةً ؟ ألا اهتفوا، ايها الملوك : إبتعدي عن السهول المصبوغة بالدم الاحمر، أيتها المجازر الشرسة. فالقوّات متعادلة والعبقريات متوازية، لتؤمّن فوضى الاولى وسلام الثانية. إذاً تراجعي ايتها الحرب، واحتقن ايها الدم، وتوقّف ايها الموت عن حصد الارواح.

الملك جون : (للمواطن) : مَن مِن الطرفين يريد السكان أن يقتبلوه ؟

الملك فيليب : تكلموا، أيها المواطنون، وصرحوا اكراماً لبريطانيا، من تريدون أن يكون ملككم ؟

المواطن : ملك انكلترا عندما نعرفه عما قريب.

الملك فيليب : اعترفوا بي انا لأني أساند حقوقكم.

الملك جون : بل اعترفوا بي انا لأني امثل أهم مصالحي الشخصية، وانا املك زمام نفسي، انا سيد وجودي ها هنا في انجيه امام مجموع شخصياتكم.

المواطن : ان قوةً أعظم منا تؤكد كل ذلك. وطالما ظلّت المسألة متأرجحة، سنخبّئ بوادر شكوكنا وراء أبوابنا المغلقة، وقد تحصّنت خلفها ضمائرنا حتى عزمت هذه الضمائر على الاستناد والانقياد الى مشيئة الملك الاصيل.

اللقيط : بحق السماء، يا اهالي انجيه، هؤلاء يضايقون الملوك ويظلّون قابعين بهدوء وراء متاريسهم كأنهم في مسرح يرقبون من خلاله، وهم مشدوهون، مشاهد الموت وفصوله حيث تتجلّى عبقريّتكم. إتّكلا عليّ يا صاحبَيْ الجلالة، واعتمدا على توجيهاتي، تصرفا كمتمرّدي القدس وكونا أصدقاء في الوقت الحاضر واتفقا معاً على توجيه آلاتكما الحربيّة الهدّامة نحو هذه المدينة ليحل بها أفدح الدمار. أطلقوا مدافع فرنسا وانكلترا بعد حشو أشداقها ورصفها صفوفاً وصبّ حممها من الغرب ومن الشرق حتى يدكّ دويها المريع جميع معالم هذه المدينة المتجبّرة. كم أودّ ان ارى كل وسائل الدمار هذه تتدفق على هؤلاء المغفّلين الى ان يبتلعهم الفناء عن بكْرة أبيهم. وبعد إتمام هذه الابادة فرّقوا القوى التي اتّحدت فترة من الزمن، ولتفترق اعلامكم ثانية ثم لتتقابلوا وجهاً لوجه، فلا يلبث الحظ أن يختار احد الطرفين ويغدق عليه

أول امتياز، إذْ يخصّه بمسرّات ذلك اليوم ويطبع على جبينه قبلة الانتصار والمجد. كيف تجدون هذه التوجيه، ايها الملوك الاقوياء ؟ أولا تلمسون فيه سياسة حكيمة ؟

الملك جون : بحق السماء المهيمنة على رؤوسنا، هذا يعجبني كثيراً. (للملك فيليب) أيها الفرنسيون ما قولكم اذا دمجنا قوّاتنا وهدمنا بيوت مدينة انجيه وجعلنا ركامها يغطي وجه الارض ؟ بعدئذ نتقاتل ونرى من منّا سيكون الملك.

اللقيط : (للملك فيليب) : هذه المدينة العنيدة قد خزلتنا. فاذا كنت حقاً من فئة الملوك القادرين الحازمين، أَدِرْ فوهات مدفعيّتك كما تفعل مدفعيتنا نحن ايضاً، نحو هذه الأسوار الوقحة. وحالما ندكّها سيتحدّى احدنا الآخر ونتصادم ويختلط حابلنا بنابلنا ويكون نصيبنا إمّا النعيم الكريم أو الجحيم المقيم.

الملك فيليب : فليكن ما تقول. هيّا تكلّم وحدّد لي من أين تبدأ بهجومك ؟

الملك جون : سأوجّه من الغرب حمم مدافعي لهدم دعائم هذه المدينة.

الارشيدوق : أما أنا فمن الشمال.

الملك فيليب : مدافعي ستصبّ قذائفها المدمّرة من جهة الجنوب.

اللقيط : (على حدة) : ما ابرع هذه الخطط. من الشمال الى الجنوب سيتبادل النمساويّون والفرنسيون قذائفهم وجهاً لوجه. فلنشجّعهم على الفناء. (بصوت مرتفع) الأفضل لي أن أذهب من هنا.

المواطن : اصغوا اليّ ايها الملوك الكبار، تنازلوا عن مطامعكم واصطبروا برهة، وسأريكم السلام والتحالف الساحر العجيب. اربحوا هذه المدينة بدون ضرب ولا تهديم. دعوا هؤلاء الاحياء يموتون على اسرّتهم بعد أن جاؤوا لاهثين ليتذابحوا في ساحة القتال. لا تكابروا، أيها الملوك الاقوياء، بل أصغوا إليّ...

الملك جون : تكلم بأمان، فكلنا آذان صاغية.

المواطن : هذه الفتاة الاسبانية السيدة بلانش التي تشاهدونها، هي نسيبة ملك انكلترا. فاحسبوا سني عمر ولي العهد لويس وسني هذه العذراء اللطيفة. فاذا كان الحب رغبة مميّزة تبحث عن الجمال، أين يجد أروع من محاسن بلانش ؟ واذا كان الهوى ميل ملحّ يبحث عن الفضيلة فأين يلاقي انقى واطهر من بلانش ؟ واذا كان الهيام طموحاً يبحث عن حليف فأين يتيسّر له وجود أنبل من الدم الذي يسري في عروق السيدة بلانش ؟ لذلك هي، نظير لويس الشاب، كاملة الأوصاف من جميع النواحي : جمال وفضيلة ونسب عريق. واذا لم

يكن الامر هكذا فالسبب هو انهما كلاهما شخصان مختلفان. أمّا هي، إن نقصها شيء فهو ان تتّحد به ليكتملا ويؤلّفا معاً انساناً واحداً. هو نصف إنسان مثالي يتحتم عليه ان يكتمل باتّحاده بها. وهي الكمال بعينه منقسماً وهو وحده يكمّلها. آه، هذان الينبوعان الصافيان عندما يتّحدان يمجّدان مواهبهما وأهدافهما. انتما سليلا الملوك تتّحدان ايضاً في وجهتيكما ليشكل مجرياكما نهراً واحداً متدفقاً جارفاً. اجل لا بد من أن يتم قران هذا الأمير بتلك الأميرة فيقوما سدّاً منيعاً يحمي شخصيهما ومصالحهما. وسيكون لهذا الزواج على الفريقين أثر أقوى من مرابض مدافعكما المصوّبة نحو ابوابنا المغلقة. فحيال هذا الزفاف سنفتح الطريق بسرعة تفوق عنف البارود المتفجّر، ونفسح لكم مجال العمل. وإلا، عليكم أن تعلموا علم اليقين بأن البحار ليست صمّاء اثناء هياجها، والأُسُود ليست اكثر تحفّزاً والجبال والصخور اكثر تأثيراً على مجرى الأمور. فالموت ذاته اثناء غضبه القاتل اكثر ضراوة منّا نحن في الدفاع عن مدينتنا.

اللقيط : انظروا الى هذا الخصم الذي يرتجف هيكله العظمي تحت اسمال الموت البالية. هذا الكائن في الحقيقة

يدور معظم كلامه على القتلى والجبال والصخور والبحار، ثم يتحدّث بإلفة عن أُسود تزأر وعن فتاة في ربيها الثالث عشر تتبع بغريزتها جرْو كُلَيْب. فمن اي مدفعيٍّ استمدّ هذا الحماس المتفجّر ؟ ان صوته يحاكي دويّ قنبلة يتصاعد دخان بارودها في الفضاء، وبيده سوط يشبه لسانه السليط الذي قرّح آذاننا المرهقة. ان كلمةً منه توازي كلمةً من قبضةٍ فرنسية. لعمري، لم يطُش صوابي قط مثلما دوّختني ألفاظه الشديدة الوطأة منذ أول لحظة ناديت فيها والد أخي، يا أبي.

(الملك فيليب ولويس والارشيدوق يتحدثون بصوت خافت).

اليونور (على حدة للملك جون) : يا ولدي، علينا ان ننضمّ الى هذا التقارب ونحقّق هذا الزواج ونمنح ابنة أخينا بائنة مناسبة. لأن هذا الوثاق سيُحكم تثبيت تاج غير مضمون بعد، وليس على قياس رأسك. فلا تتسنى لهذا الفتى الضعيف شمس كافية تساعد على نضج ثمرة هذه الزهرة المتفتحة التي لا تَسْتَشفّ منها نفحة القوة والعزيمة. وأنا أرى في عيون الفرنسيّين استعداداً للتسليم. انظر اليهم كيف يتهامسون. فما عليك إلا ان تحصرهم بينما تستهويهم هذه الرغبة خوفاً من ان

تدفعهم غيرتهم الى تجميد موقفهم وتوطيد وضعهم بداعي الرجاء والصلاة ووخز الضمير الحيّ.

المواطن : لماذا لا يلبّي اصحاب الجلالة هذا العرض المفعم بالصداقة لإنقاذ المدينة المهدّدة ؟

الملك فيليب (للملك جون) : تكلم أنت أوّلا، يا سيد انكلترا، لانك بدأت بمفاوضة هذه المدينة. فما قولك ؟

الملك جون (للملك فيليب) : اذا كان ابنك الامير ولي العهد قادراً على تصريف فعل الحبّ ضمن إطار جمال هذا الزفاف، فان بائنة الاميرة بلانش ستوازي ما تناله ملكة، ما دامت مقاطعات انجو وتورين وماين وبواتو ما عدا المدينة التي نحاصرها وكل ما تشتمل عليه المنطقة من جهة البحر، وهي من جملة الاراضي التابعة لتاجي وسلطتي، ستُلحَق بمخصّصاتها من جرّاء زواجها هذا السعيد، وستصبح هكذا، بسعة ثرائها فضلاً عن لقبها النبيل وشرفها وكرامتها وجمالها وتربيتها واصالتها، من فضليات سائر اميرات الدنيا.

الملك فيليب (للويس) : ما رأيك يا ولدي ؟ تفحّص جيداً محيا هذه الصبيّة الرائعة.

لويس : هذا ما أفعله، يا مولاي، وقد اكتشفت في عينيها فتنة هي اعجب معجزة، اذ رأيت فيها ظلّ شخصيتي وقد رسمته شمس عالمها السحري. وأُقسم اني لم اجد

نفسي هكذا مجذوباً إلا حين انطبعت معالم ملامحي
في عمق لحظها المتعطّف.

(يكلّم بلانش بصوت خافت).

اللقيط (على حدة) : « ملامحه في عمق لحظها المتعطّف »،
وقد نسي ان يقول انه يهوى ما سيحصل عليه من جاه
وأموال، بعد ان تساءل عمّا يختلج من عواطف في
نفس هذه الحسناء. فان عاشقنا يجد في ذلك عقاباً
على خيانته الظاهرة للعيان. فما اتعسه من غبيّ
أصبحت له قضية، وبات فؤاده سجين قلب حبيبته.

بلانش (لولي العهد) : رغبة عمّي، في الحقيقة، هي أعزّ أمنية
لديّ. فإن لقي فيك ما استرعى انتباهه وعطفه، فذلك
دليل كافٍ على استحواز رضاي وقبولي، وبصريح
العبارة، على كسب ودّي ومحبتي. انا لا أريد ان
اتزلّف اليك، يا ولدي، واعلن لك ان كل ما فيك من
صفات يستحق تقديري ومودّتي، وأصرّ على التأكيد
اني لا ارى فيك ما يثير في صدري اي تردّد او نفور.

الملك جون : بماذا يتناجى هذان البلبلان ؟ وماذا تقول ابنة أخي ؟

بلانش : اني على الدوام راغبة في قبول ما تتنازل الى اعتباره
حسب حكمتك السديدة، أفضل ما يناسبني من
النصح والخيار.

الملك جون : تكلم اذاً، يا ولي العهد. هل تستطيع ان تحب هذه السيدة ؟

لويس : بل ارجوك ان تسألني ان كنت قادراً على الامتناع عن التعلق بها ؟ لأني منذ الآن انا اسير هواها.

الملك جون : اذاً، أمنحك ما يحقّ لها أي خمس مقاطعات هي : فاكْسان وتورين وماين وبواتو وأنجو، فضلاً عن ثلاثين الف قطعة ثقيلة من العملة الانكليزية. فيا فيليب ملك فرنسا، ان اعجبك هذا مُرّ ابنك وكنّتك ان يمسك احدهما بيد الآخر.

(بلانش وولي العهد يمسك كل منهما بيد رفيقه).

الملك فيليب : والآن، يا سكان انجيه، افتحوا ابوابكم واستقبلوا هذا الإرتباط الذي تمّ بفضلكم، لأن مراسم الزفاف ستقام فوراً في معبد السيدة العذراء. أوليست السيدة كونستانس بمعيّتنا ؟ لا، انا واثق بأنها غير موجودة هنا. لان حضورها كان حتماً عقّد اجراء مراسم الزواج الذي جرى الاتفاق عليه الآن بسهولة. أين هي ؟ واين ابنها ؟ من يعرف مكانها، عليه أن يهدينا اليه.

لويس : هي في خيمة سموّك، تسيطر عليها العزلة والكآبة.

الملك فيليب : لا بدّ للمعاهدة التي ابرمناها منذ هنيهة من ان تبدّد

حزنها وتسكب العزاء في قلبها. (للملك جون) يا اخي الانكليزي كيف السبيل الى مراضاة هذه الارملة المشاكسة. لقد جئنا لكسب ودّها، والله يعلم كم تحمّلنا من مشقة للوصول الى هذه الغاية.

الملك جون : سنجد علاجاً لكل معضلة. لاننا سنرفع مقام ارثور الشاب ونمنحه لقب دوق بريطانيا وكونت ريتشموند، وفي الوقت ذاته نجعله سيّد هذه المدينة الجميلة الغنية. نادوا السيدة كونستانس. ارسلوا شخصاً ليستدعيها ويجيءَ بها الى هنا على عجل كي تشاركنا في هذا الاحتفال. (للملك فيليب). انا على يقين باننا عندما نلبي بعض رغباتها، نكون قد عملنا على ارضائها ومنعها من الاعتراض والصراخ. وما علينا إلّا ان نبادر بأقصى السرعة الى اقامة شعائر هذا الزفاف بصورة ارتجالية غير متوقعة.

(يخرج الجميع ما عدا اللقيط. وينسحب كل اهالي انجيه من أعلى الأسوار).

اللقيط (على حدة) : هذا العالم مجنون، وقد تملّك الهوس أيضاً هؤلاء الملوك، وبنوع أخص، هذا الاتفاق حتماً يحفل بالجنون. فلكي يضع جون حدّاً لأطماع أرثور بكامل المملكة، يتنازل هذا الأخير بطيبة خاطر عن جزء منها. والفرنسي الذي كان محتمياً بدرعه ثقلت

عليه وطأة ضميره. هذا الفرنسي الذي قادته غيرته وانسانيته، جاء الى ساحة القتال كجندي شجاع متحمّس وتبادل الرأي هو وهذا الذي يعرقل ويغيّر التصاميم، هذا الشيطان الخبيث. هذا المنافق الخدّاع الذي يهدم كل قصد شريف. هذا المخاتل الذي يُقسم كل يوم يميناً لا يفي به، بل يستغلّ بموجبه الجميع من ملوك ومتسوّلين وشيوخ وشبان وصبايا. ولم يبقَ عليه إلّا ان ينتحل فضيلة البتولية، ويسلب العذراء المسكينة اثمن كنوزها. هذا المولى الغدّار صاحب الوجه المشرق الصبوح الذي لا يرى في كل الامور سوى مصلحته الشخصية. هذه المصلحة التي تغرّر بكل الناس وفي كل العصور، ضمن عالم متوازن يتحرك على خط مستقيم في ارض مسطحة عندما تتدخل المصلحة في متاهات الدنيا التي تحوّر الاندفاع وتحوّل الحزازات الى الانحياز والتوجيه الخاطىء، فتضلّ سواء السبيل مبتعدة عن اهدافها الاساسية. هذه المصلحة المتلوّنة الخداعة الهدّامة المفسدة باقوالها البعيدة عن رسالته المتحررة في حرب ترمي الى رفع الغبن فتنتهي الى سلام مجحف غاشم. لكن، لماذا أحمل هذه الحملة الشعواء على المصلحة ؟ ألأني لم انل مبتغاي ولم تقبض يدي إلّا على الزبد الزائل. فإن أرادت أناملي دغدغة هؤلاء الملائكة المزدانة اجنحتها بالذهب

الوهّاج، لن يفلح سحرها في استمالتي الى بهرجة غناها. ومهما بلغتُ من الثراء سيحملني ترفّعي على تجنّب دنايا البؤس، ما دام الملوك يحنثون بأيْمانهم لنيل مآربهم. فيا أيتها المصلحة أتوسّل اليك ان تكوني إلهي لأسجد لك وأعبدك بكل قواي ومن أعماق قلبي.

الفصل الثالث

المشهد الأول

في خيمة ملك فرنسا.

(تدخل كونستانس وارثور وسالزبري).

كونستانس : (لسالزبري) : لقد ذهبا ليتزوجا. مضيا ليُقسِم كل منهما ان يؤمّن السلام لصاحبه. ها هو دم فاسد يمتزج بدم آخر فاسد. أجل ذهبا ليصبحا صديقين. سيحظى لويس ببلانش التي تنال عدة مقاطعات. هذا غير صحيح اذ انك اخطأت التعبير كما اخطأت السمع ايضاً. فكّر جيداً، وكرّر عليّ روايتك. هذا مستحيل. انت تقول بكل بساطة ان الامر جرى هكذا. وانا على يقين بأن كلامك لا يقوى على اقناعي، ما دام حديثك يخرج من فم رجل بذيء. صدّقني إن اكّدت لك ان قولك غير مقنع. وانا لديّ حلفان ملك يثبت عكس ما تدّعي. ستعاقب على ما

ابديته لي مما لم يرتحْ اليه ضميري. فانا مريض، والخوف يقضّ مضجعي، والقلق ينخر قلبي، وعندما يجتاحني الفزع انا الارملة المعرّضة للرعب كباقي النساء، لا اقوى على مجابهة الهلع. ولو مهما اكّدت لي انك تمازحني لن يطمئنّ بالي ولن يهدأ روعي وسأظلّ مضطربة طوال العمر. لماذا تهزّ رأسك هكذا؟ لماذا تُلقي على ابني هذه النظرة الحائرة الكئيبة ؟ لماذا تضع يدك على صدرك، لماذا تجول الدموع في عينيك الحزينتين وتسيل من مآقيك كالينبوع ؟ هل تُثْبت هذه الاشارات اليائسة صحة كلامك ؟ كرّر لي اذاً لا حديثك الأوّلي فقط، بل هذا التصريح الذي يعلن ان روايتك صحيحة.

سالزبري : أوكد لك انها صحيحة أكثر ممّا يمكن ان يُخامرك الشك بأنها غير حقيقية.

كونستانس : بما أنك تعلّمني كيف أصدّق لوعتك، علّمني ايضاً بموجب هذه الآلام المريرة كيف أموت وأرتاح من هذه الشكوك المضنية. ان هذا الاعتقاد وحظي السعيد هما نظير غضب القانطين الذي يضعُف في أول صدمة ثم لا يلبث ان يضمحلّ. لويس يقترن ببلانش. فإلى أيّ درك تدنّيت، يا ولداه ؟ فرنسا اضحت صديقة انكلترا، فماذا حلّ بي انا من مذلّة وشقاء ؟

(لسالزبري) إرحل يا صاحبي، فلم يعد يسعني ان اراك، لان هذا النبأ جعلك في نظري أحطّ الرجال على وجه الأرض.

سالزبري : أي ذنب اقترفت أنا، أيتها السيدة الصالحة، سوى إعلامك بما أتاه غيري من شرّ وأذى.

كونستانس : هذا الفساد القبيح للغاية في حدّ ذاته، جعل أَلْسنة المناوئين النمّامين تلوكه وتجترّ أصداءه باستمرار.

ارثور : أتوسل اليك، يا سيدتي، أن تزعني وترضي بالأمر الواقع.

كونستانس : أأنت الذي تطلب مني ان أزعن لقهري ؟ إن كنت أنت فظّاً ومختلّا تغتاب هكذا بطن امك التي حملتك وولدتك، فأنت ترتكب أفظع الاخطاء المؤذية الكريهة وتبدو أعرج بغيضاً ومقوّس الظهر ذميماً بل مسخاً رهيباً تكسوه البثور النتنة والتشويهات المفزعة، وكلها لديّ سيّان. سأزعن اذاً، لأنني أحبّك انت الذي لست اهلاً لنبالة محتدك ولا تستحق ان يكلّل رأسك اي تاج. لكنك وسيم الطلعة، وحين أتيت الى هذا العالم، يا ولدي، تضافرتِ الطبيعة والحظ السعيد لجعلك رفيع المقام. وفي ما يتعلّق بالمواهب التي حبتك اياها هذه الطبيعة الكريمة يمكنك ان تنافس الزنابق والورود قبل ان يكتمل تفتّح اكمامها. لكن الحظ لشدة انحطاطه ودناءته انقلب عليّ، وحالف عمك جون في

ستر زنىً مستمرّ. وقد جرّ حظه الذهبي فرنسا الى دوس السيادة وقادت صاحب الجلالة الى خفر عهود الحب والوئام. ففرنسا اذاً هي التي أفسدت طالعنا الشبيه بالمومس المبتذلة حيال الملك جون المغتصب. قل لي، يا صاح، أوليس رئيس فرنسا انساناً مخادعاً غداراً؟ فما عليك إلا أن تدسّ له سمّ أقوالك الفاضحة. وإلّا تحتّم عليك أن تكمل طريقك وتدع المفسدين يغرقون في مستنقع آلامهم وعزلتهم. وانا وحدي اتحمل جميع العواقب.

سالزبري : سامحيني، يا سيدتي، إذْ لا يسعني ألّا ان امتثل بين يدي الملوك.

كونستانس : يمكنك بل يجب عليك ان تتصرّف هكذا. انا لن ارافقك، بل سأحمل آلامي على المفاخرة بالصبر الجميل في الملمّات مهما ثقلت وطأتها. لأن الكارثة لا تأبه لرضوخ ضحيتها. دعِ الملوك يأتون اليّ، ليجتمعوا ويلمسوا فظاعة أوجاعي الاليمة الى حدّ لا يتسنى إلا للارض الصلبة وحدها ان تتحمّلها. اما انا وشقائي فنقبع هنا منزوين فوق عرشي هذا. فقل للملوك ان يجيئوا ويحيّوني

(ترتمي على الأرض).

(يدخل الملك جون، وفيليب ملك فرنسا ولويس وبلانش واليونور الملكة الأم، واللقيط والأرشيدوق ورجال الحاشية).

الملك فيليب : (لبلانش الاسبانية) : صحيح، يا ابنتي الحبيبة، سيُحتفل على الدوام في كل ارجاء فرنسا بهذا اليوم السعيد. ولكي نزيده مهابةً ستوقف الشمس الساطعة مسيرتها، وكساحر عجيب ستبدّل مظهرها البهيج طبيعة هذه الأرض الموحلة وتحوّلها الى ذهب وهّاج. وسيجعل المستقبل ذكرى مولدها حتماً يوم عيد عظيم.

كونستانس (وهي تنهض) : بل يوم حداد وشؤم لا يوم عيد بهيج. فبماذا امتاز هذا النهار ؟ لماذا استحقّ ان يُكتب بحروف من نور كأن ساحراً بارعاً اضفى عليه هذا الوهج في رزنامة اضحت من أمجد المناسبات ؟ بل بالعكس علينا ان نرذل هذا اليوم من الاسبوع، لأنه غاص في العار والظلم والخساسة. وإن كتب له ان يبقى في حيّز الوجود، على النساء الحبالى ان يطلبن من السماء ان لا يضعن اطفالهن في مثل هذا اليوم المنحوس خشية ان يلدن مسوخاً رهيبة. على البحّارة ان لا يخافوا من الغرق في هذا النهار المشؤوم، والصفقات المعقودة في هذا اليوم لا بدّ من إلْغائها والتخلص من سوء عاقبتها. ولا بدّ لجميع الامور

المباشر بها في هذا النهار، من ان تكون نهايتها سيئة
لأن في هذا اليوم بالذات، حتى الولاء الأكيد ينقلب
خيانةً نكراء.

الملك فيليب : بحق السماء، يا سيدتي، ليس لك من حجة لتلعني
النتائج المرضية المحققة في هذا النهار. أولم أضع
تاجي بتصرّفك ؟

كونستانس : لقد منحتني شبه تاج، اذا تعرّض لأخفّ لمسة تبيّن ان
معدنه رديء لا قيمة له. وهكذا كنت خدّاعاً مضلّلا،
لأنك جئت شاهراً سيفك لسفك دم اعدائي، واذا بك
الآن قد مددت يدك الأثيمة لمصافحة أخصامي
وتحالفت واياهم على النيل من كرامتي بينما أصحاب
القبضة المهدّدة والحاجب المقطّب اثناء الحرب
انبسطت اساريرهم في معانقة حميمة وسلامٍ مبرقعٍ
وتعاهدٍ على الظلم ضمن عصابة تعاضد ومساندة. فيا
أيتها السماء حرّضي الشعب على حمل السلاح
لمحاربة هؤلاء الأمراء الماكرين. ولا تنسيْ اني انا
الأرملة المنكوبة أصرخ : أيتها العلياء، هبّي الى
معونتي، ولا تدعي ساعات هذا التدنيس والتنكيل
تنتهي اليوم بسلام. لكن قبل غياب الشمس اجعلي
الخلاف المسلّح يدبّ بين هؤلاء الملوك المخاتلين.
ألتمس منك أن تصغي الى دعائي، واستحلفك ان
تستمعي الى توسّلي.

الارشيدوق : هدّئي روعك، ايتها السيدة كونستانس.

كونستانس : بل الحرب، الحرب، لا اريد السلام. لان السلام بالنسبة اليّ يعني الكفاح. يا مدينة ليموج اسمعيني، ويا أيها النمساوي، احذر تلطيخ يدك بالدم، انت مشعوذ دجّال انت شقي حقير، انت جبان قليل الشهامة كثير اللؤم، تلتزم جانب القويّ لتبطش بالضعيف، وتتشبث بأذيال المكر لتهرب من الواجب، انت ايضاً خداع مراوغ تتظاهر بالاستقامة والجبروت، وفي الواقع لا تعرف لهما من معنى، يا ايها المهرّج السخيف، اذ تدّعي الدفاع عن صديقك وانت تغدر به وتستغل أوضاعه الصعبة. انت ايها الضفدع القذر، يا صاحب الدم الفاسد، أولم تتكلم سابقاً بصوت كهزيم الرعد لصالحي ؟ ألم تكن كالجندي توصيني بأن اتّكل على حسن طالعي وعلى وفائك وقدرتك ؟ وها انت قد انتقلت الى صفوف اعدائي. اراك ترتدي جلد الاسد وتتصرف كالنعجة وتتواضع كالحمل وتكشّر عن انيابك كالذئب. ألّا اخلع عن وجهك برقع الحياء المستعار، والقِ جلد ضبع على كتفَيْكَ الهزيلَيْن واكشف عن حقيقتك.

الارشيدوق : آه، ليتني لم أسمع من شخصٍ نظيرك هذا الكلام البذيء.

اللقيط : (للأرشيدوق) : هيا ألْقِ حالاً جلد الضبع على هذين الكتفين ايضاً.

الارشيدوق : (للقيط) : هل يسعك ان تكرّر هذا القول عن نفسك بالذات، يا مغفّل ؟

اللقيط : ألْقِ أيضاً جلد ضبع على هذين الكتفين المتخاذلَيْن.

الملك جون : (للقيط) : أنا لا استحسن هذا المزاح، فما بالك تنسى حدودك وتسترسل فيه ؟

(يدخل الكردينال بندولف)

الملك فيليب: ها هو مندوب بابا روما.

بندولف : (يحيّ الملكين) : السلام على ممثلَيْ شريعة السماء على وجه الارض. بقربك، أيها الملك جون، رسالتي المقدسة تُختصر بأن أسألك، انا كردينال مدينة ميلانو، مندوب الباب إنّوسنْتوس، لماذا تثور بمثل هذا العناد على أنظمة الدين ؟ ولماذا أبعدت بعنف « إتْيان لنْكتوف » عن مقره الاساسي الذي إنْتُخب لأجله ؟ هذا ما أستفسر منك عنه باسم البابا المذكور الذي أمثّله.

الملك جون : ارجوك ان تفيدني بأية صفة دنيويّة تتذرّع لتستجوبني في هذا الموضوع المقدس المتعلّق بي وحدي كملك؟ انت غير قادر، ايها الكردينال، على ابتداع صفة هكذا ضعيفة عاجزة بل غبيّة لتجبرني على الجواب. انقل

من قبل انكلترا لمن أوفدك أن أي كاهن ايطالي لا يسعه ان يجبي فلساً واحداً أو يفرض اية ضريبة على أتباعي وممتلكاتي. وبما أني انا هنا الرئيس الأعلى تحت القبّة الزرقاء، اصرّ بدون مساعدة أيّ كان، على الدفاع عن سلطتي المطلقة في كل بقعة تشملها مملكتي. فقل هذا للبابا وبلغه اني لا اكنّ اي اعتبار لشخصه او لسلطته.

الملك فيليب : انت تجدّف، يا اخي الانكليزي.

الملك جون : انت وسائر ملوك الأرض يمكنكم ان تظلُّوا خاضعين لسلطة هذا المغامر المتسلط تحت طائلة اللعنة التي يُعوّض عنها المال ويفتديها الذهب الرنان الذي ليس في نظري سوى نفاية وتراب يمكنه ان يشتري في هذه الصفقة صفح رجل لا يبيع إلا غفرانه الشخصي. اجل إلبثوا انتم كلكم خاضعين ومنقادين باطلا كي تدفعوا عائدات ترتكز على الشعوذة والتدجيل. لكن هذا الأمر لا يهمني، وانا وحدي اعارض مآرب البابا واعتبر اصدقاءه كألدّ أعدائي.

بندولف : بموجب السلطة الشرعية التي اتمتع بها، لتكن ملعوناً ومحروماً. وليتبارك كل من يرفض الولاء لهرطوقيّ مثلك. فيُعتبر سلوكه مثالياً، ويكون مباركاً كل من يسعى سرّاً الى خطف حياتك الدنيئة.

كونستانس : أفسح المجال لحظة لروما كي تجد مبرّراً لهذه

اللعنات. يا ابتِ الكردينال، قلْ آمين، بعد اعلاني لعناتي الصارخة. لأنّ بدون تحمّل آلامي لا يحق لإنسان ان يتلفّظ بلعنة.

بندولف : أنا ألْعنه باسم القانون.

كونستانس : هذا لسان حالي انا ايضاً. لكن عندما لا يقوى القانون على صيانة الحقوق، تقضي العدالة ان تخلي مكانها للكبت والألم. فالشرع لا يستطيع ان يردّ لإبني مملكته. لأن من استولى عليها سيطر ايضاً على القانون. وعندما لا يكون الشرع سوى الاستبداد والظلم بعينه، بأي حق تكمّ فمي وتمنعني من صبّ اللعنات على رأس من يستحقها.

بندولف : يا فيليب ملك فرنسا، تحت طائلة حلول اللعنة عليك، لا تساند هذا الهرطوقيّ الكافر، بل هدّده بقطع رأسه بموجب السلطة التي تستمدها من عرش فرنسا اذا لم يخضع صاحبه لروما.

اليونور : (لفيليب) : لماذا يمتقع لون وجهك خجلاً، أيها الفرنسي ؟ لا بدّ من فكّ ارتباطك به.

كونستانس : انتبه ايها الشيطان الخسيس، واحذر أن يخشى الفرنسي وخز ضميره، واذا ابتعدت عنه، ان يخسر نفسه ويتدهور الى اعماق الجحيم.

الارشيدوق : ايها الملك فيليب، اصغِ الى الكردينال.

اللقيط : (للملك فيليب، وهو يشير الى الارشيدوق) : والقِ جلد الضبع على كتف هذا الجبان.

الارشيدوق : ايها المحتال، يتحتّم عليّ ان اتحمّل هذه الاهانة بما أنه...

اللقيط : (للارشيدوق) : يمكنه ان يحلّ محلك.

الملك جون : ماذا تريد ان تقول للكردينال، يا فيليب ؟

كونستانس : وماذا يستطيع ان يردّد غير ما نطق به الكردينال نفسه ؟

لويس : فكّر جيدا، يا أبي، واخترْ بين حرْم روما الثقيل والتضحية الزهيدة التي يتحملها الانكليزي راضياً. وغامر بما هو أقل خطراً من سواه.

بلانش : أي حرم روما.

كونستانس : يا لويس، هذه نقطة حسّاسة. فإبليس يحاول أن يغريك بهيئة عروس، في ثوبٍ شفّاف.

بلانش : يا سيدتي كونستانس، ليس ضميرك الذي يتكلم هكذا بل فائدة مصلحتك.

كونستانس : آه، ليتني عرفت ما هي مصلحتي التي لا تؤمِّن إلّا بموت ضميري. لذا وصلت الى الاستنتاج ان ضميري لن يرضى إلا بالقضاء على مصلحتي. فهل ترغبين في تعطيل مصلحتي ؟عليك ان تدعي ضميري حيّاً لأنك اذا قضيت عليه تُحْيين مصلحتي.

الملك جون : لقد غلب التأثّر على الملك الذي لم يعد يستطيع الإجابة.

كونستانس : (للملك فيليب) : يجب عليك أن تبتعد عنه، وهذا افضل ردّ.

الارشيدوق : تصرّف هكذا، ايها الملك فيليب. ولا تترك المسألة تتعثّر وقتاً أطول.

اللقيط : (للارشيدوق) : وانت ايها الخدّاع الظريف لا تجرّ وراءك إلا جلد ضبع.

الملك فيليب : انا محتار، ولم أعد أدري ما يجب علي ان أقول.

بندولف : ان ما تريد ان تقوله ربما يزيد حيرتك واسفك اذا صرت هدفاً للحرم واللعنة.

الملك فيليب : (للكردينال) : أبتِ الجليل، ضع نفسك في مكاني وقل لي كيف تتصرّف أنت ذاتك. ها قد تشابكتْ ايدينا الملكية واتحدتْ ارواحنا ايضاً وتعانقت وارتبطت بوثاق الدين المتين إثر قَسَمنا المقدس، حسب أعزّ مقصد من حلفاني للمحافظة على الأمانة والوئام والصداقة والحب الخالص بين مملكتينا وشخصينا الساميين، ولكي نتصافح في نهاية المطاف ونتصافى لتوطيد هذه المعاهدة الملكية، وإن لم يتسنَّ لنا الوقت الكافي لنغسل ايدينا... يعلم الله في الواقع، قبل هذه الهدنة كم لطختْها هذه المجزرة التي أثارها

روح الانتقام والمشاحنة بين هذين العاهلين الغاضبين وما كادت ايديهما تطهران، وكانتا في وقت ليس ببعيد متشابكتَيْن في حبّ متبادل وثيق، وتجرّد مشكور ساعد على مصالحتهما وتفاهمهما ثانية، حتى تلاعبا كأنهما صبيّان متخاصمان يتعاركان بالأيدي. وكان بالامكان خفر العهود والحنث بالوعود وتسيير زمر دموية لتحطيم السلام الباسم واثارة الفتنة النائمة والتمرد على مواثيق الودّ والوفاء. ايها الرجل الصالح القديس، يا أبتِ الوقور، ارجو أن لا تتواصل الامور على هذا المنوال. وألتمس من مقامك الرفيع ان تفكّر وان تقرّر وأن تفرض بعض التوجيهات برفق حتى نتوافق برضى وسرور ونظل اصدقاء مخلصين.

بندولف : (للملك فيليب) : كل ما وصلنا اليه ليس له شكل نظامي، وهكذا لم يبقَ امامنا سوى اللجوء الى حسم خلافنا بقوّة السلاح. فكن انت بطل طائفتنا وهي في الحقيقة امّنا العادلة التي لا تتردّد عند اللزوم في صبّ لعنتها الوالدية على ابنها المشاكس العقوق. يا فرنسا، تستطيعين ان تمسكي برأس الحية وتقتلعي انيابها السامة، وبالأسد الهائج وتنتزعي براثنه الحادة، وبالنمر الشرس وتحطمي أنيابه الفتاكة، لأن ذلك أسهل من مصافحة اليد القذرة التي تمتدّ لمبادرتك بسلام غادر.

الملك فيليب : انا استطيع ان اسحب يدي في مثل هذا الحال، لكني
لا استطيع ان اتغاضى عن تلويث شرفي.

بندولف : الآن عرفت الشرف الذي يناوئ الشرف، وها انت
تثير الحلفان على حلفان من نوع آخر وتخالف
كلامك عينه بكلام مناقض صادر عنك انت بالذات
سابقاً. أوّلاً، عليك ان تصون النذر الذي تعهدت
بالحفاظ عليه امام السماء، وأن تكون حامي معتقداتنا
ومقدّساتنا. وها انا ألْمس ان ما أقسمت عليه يخالف
موقفك وانت لا تقوى على التقيّد به. اذ من الغبن ان
لا تفي بما أقسمت على القيام به، وانت غير صادق،
والخطأ كامن في تنفيذك بأمانة ما يفضي الى عمل
الشرّ. وانت تعلم ان اردأ الافعال السيئة هي المثابرة
على التشبث بالغلط. لأن هذا الانحراف يحيد عن
الطريق القويم، باعتبار ان الكذب يداوي الكذب،
كما ان الإلتهاب يعالج الالتهاب في عروقٍ حرقها
الكيّ. المبادئ الدينية تجبر الانسان على التقيّد
بالنذور، لكنك انت حلفت بما يتعارض وتعاليم
الدين. ولضمان محافظتك على الايمان نقضتَ
قسمك بحلفان آخر. بينما القسم الذي يؤدّيه المرء
بدون قناعة ليس بحلفان بل هو نوع من المكر
والخداع. هكذا يأتي القسم كأنه مهزلة ذريّة، فيكون

نذرك الاخير على عكس نذرك الاول، ويكون في الحقيقة ثورة تشنّها على ذاتك. ولن يتسنى لك ان تفوز بأي نجاح ملموس إلّا اذا كبحت جماح انانيتك وانتصرت بنبل وترفّع على هذه الخساسات الهوجاء. ولعلّ مقاصدنا الصالحة والتماساتنا وتضرعاتنا تساعدك اذا تنازلت الى اقتبالها بروح سمح وصدر رحب. وإلّا، كن على يقين بان لعناتنا ستلحق بك الى القبر، ثقيلة الوطأة الى حدّ ان ترديك في هوّة اليأس والقنوط وتجعلك تنوء تحت وقر أحمالها المرهقة.

الارشيدوق : لا يغرب عن بالك ان التمرد يستفزّ التمرّد.

اللقيط : اجل، اجل. أولا يوجد جلد ضبع لسدّ هذا الفم المتشدّق ؟

لويس : يا ابتاه، هيا الى إشهار السلاح.

بلانش (لولي العهد) : في يوم زفافك، ورغم ارادتي انا التي وافقت على الاقتران بك، هل تريد في مأدبة عرسك ان تقدّم ما قطعت من رؤوس الرجال ؟ وهل تنوي سماع الابواق المزعجة والطبول التي تصمّ الآذان كأنها منبعثة من اسفل دركات الجحيم، لا الموسيقى التي تشنّف الآذان اثناء حفلة زفافك. أيا زوجي العزيز، استمعّ اليّ. وا أسفاه، كم هو غريب هذا الصراخ الذي يخرج من فمي قسراً. فباسم الشخص

الذي لم يلفظْه قط لساني قبل هذا النهار، أتوسّل اليك وانا جاثية على ركبتيّ ان لا تلجأ الى السلاح وتشهره في وجه عمك.

كونستانس : أرجوك، يا ولي العهد الفاضل، رحمةً بركبتيّ اللتين إخشوْشنتا من كثرة الركوع، أن لا تغيّر القرار الذي أعلنته السماء مسبقاً.

بلانش : الآن يسعني ان اعرف إن كنت حقاً تحبني، وأية صفة ستؤثر عليك أكثر من كوني زوجتك ؟

كونستانس : هذا هو أغلى ما جعلكِ تفتخرين به، وأعني الشرف. فاحرص اذاً على شرفك يا لويس ؟

لويس (للملك فيليب) : كم هي دهشتي عظيمة لرؤية جلالتك جامد الشعور عندما تزحمه مثل هذه المصالح الملحّة.

بندولف : سأنزل به الحرْم لا محالة.

الملك فيليب (للكردينال) : لست بحاجة اليه... (للملك جون) : سافترق عنكِ، يا انكلترا.

كونستانس : ما اروع رجوع جلالتك بعد النفي.

اليونور : وما أحطّ خيانة فرنسا المقبلة.

الملك جون (للملك فيليب) : ستتحسّرين على هذه اللحظة المؤاتية، قبل مرور ساعة من الزمن، يا فرنسا.

اللقيط : ستزرف فرنسا دموعها السخينة مهما رؤف بها الزمان المتقلّب.

بلانش : الدماء تغطّي عين الشمس رغم صحو النهار، فالوداع اذاً. في أي اتجاه عليّ ان اسير ؟ انا مع هذا وذاك، والجيشان يمسك كل منهما بإحدى يديّ ويشدّها نحوه حتّى يكاد يخلعها بعنف مؤلم. (لولي العهد) : لا استطيع ان اصلي لاجل انتصارك، يا زوجي الحبيب. (للملك جون) وانت، يا عماه، يتحتّم عليّ ان اصلّي لأجل هزيمتك وانكسارك. (للملك فيليب) اما انت، يا ابي، فلا يسعني أن ألْتمس لك الحظ السعيد. (للملكة الام) وانتِ، يا جدتي، لا سبيل لي إلّا ان اتمنى تحقيق أمنياتك. فالظافر كائناً من كان، لن ينوبني منه إلا الخسران، وأنا على يقين بأني الخاسرة قبل أن تظهر نتيجة المعركة.

لويس : ظلّي الى جانبي، يا سيدتي، لأن حُسْن الطالع لن يحالفك إلا بصحبتي.

بلانش : لا تنسَ ان ما ينعش آمالي قد يهدم حياتي.

الملك جون : (للقيط) : يا ابن عمي، إذهب واجمع قوّاتنا (يخرج اللقيط. للملك فيليب) أيها الفرنسي، يضايقني غضبك المحرج، ويحرقني لهيبه الذي لا تطفئه سوى اراقة دماء فرنسا ودمه هو الغالي.

الملك فيليب : غضبك لن يحرق إلا شخصك ويحوّلك الى رماد، قبل ان يطفئ دمك لهيبه. فاحذر من نفسك لأنك في خطر داهم.

الملك جون : ليس أكثر من الشخص الذي يهدّد حياتي... هيا الى السلاح، ولنتقدّم بخطىً ثابتة.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في سهل قرب انجيه. تسمع موسيقى الانذار.

(يتحرك الجنود على خشبة المسرح يدخل اللقيط حاملاً رأس الارشيدوق).

اللقيط : صدّقني. لقد أصبحت حرارة الشمس في هذا النهار لا تطاق. فأي شيطان من الفضاء يصبّ علينا حمم الدمار. أيها الرأس النمساوي، ارتحْ ها هنا ريثما يتاح للملك فيليب ان يتنفّس الصعداء.

(يلقي الرأس الى الأرض).

(يدخل الملك جون، سائقاً امامه ارثور سجيناً، ثم يدخل هيوبرت)

الملك جون : يا هيوبرت، أحرس هذا الولد. (للقيط) يا فيليب، لنحسم الأمر بسرعة. فإن والدتي محاصرة في خيمتنا ومحبوسة هناك. لذا انا خائف عليها.

اللقيط : لقد خلّصتها أنا، يا مولاي، وسموّها الآن في أمان، فلا تخشَ اي مكروه. الى الامام، يا مليكي المفدّى. وبقليل من الجهد نصل بهذه العملية الى شاطئ الأمان.

(يخرجان).

المشهد الثالث

(حركة جنود بالإنسحاب. يُشاهَد الملك جون عائداً تصحبه الملكة الأم اليونور، وهيوبرت ممسكاً بيد أرثور، ثم اللقيط ولوردات انكليز).

الملك جون (للملكة امه) : هذا ما سيتمّ عمله. ستبقين انت في المؤخرة مع قسم من الجيش. (لأرثور) وانت يا ابن العم، لا تكن حزيناً. فإن جدّتك تحبك وسيكون عمك العطوف لطيفاً معك تماماً نظير ما عهدته في ابيك.

ارثور : لكن الغم سيقتل امي.

الملك جون (للقيط) : لا تقل نعم لانكلترا، يا ابن عمي، بل سارع الى أخذ المبادرة. وقبل مجيئنا، عليك ان تهزّ اكياس نقود هؤلاء الرهبان، لتطلق سراح ملائكتهم المسجونة وهي مصنوعة من الفضة. لا بد لجياع

الحرب ان يشبعوا من خيرات السلم. ويمكنك استخدام سلطتي الى اقصى مداها.

اللقيط : لن يؤخرني قرع الاجراس ولا تلاوة كتب الصلاة ولا إضاءة الشموع عندما يستدرجني رنين الذهب ولمعان الفضة للتقدّم والهجوم. سأغادر سموّك (للملكة الأم) وانتِ، يا جدتي، وإن لم اتذكّر قط اني من الاتقياء، سأصلي لأجل خلاصك، وها أنا أقبّل يدك المباركة.

اليونور : الوداع، يا ابن العم. (يخرج اللقيط) لي كلمة اقولها لك.

(يترك ارثور يد هيوبرت ويذهب الى الملكة الام التي تأخذه جانباً. ينسحب اللوردات الى مؤخرة خشبة المسرح).

الملك جون : تعالَ الى هنا، يا هيوبرت. (يتقدم هيوبرت نحو الملك) ما ألطفك، يا هيوبرت، نحن مدينون لك بالكثير. في هذا المكان إنسان يعتبر ذاته مديناً لجميلك يودّ أن يسدّد لك ما يوازي إخلاصك وتفانيك. يا صديقي العزيز، قَسَمك الطوعي يحيا هنا في قلبي، وانا احفظ لك أصدق المودّة. هات يدك... فلديّ ما اقوله لك. لكني أحتفظ به لمناسبة افضل. بحقّ السماء، يا هيوبرت، كم أريد ان أبيّن لك مدى تقديري ولاءَك لي.

هيوبرت : انا لا انسى افضالك، يا صاحب الجلالة.

الملك جون : يا صاح، ليس ما يحملك على التصريح بذلك. لكن الظروف القادمة ستضطرك الى اعلانه، ومهما تأخّر الوقت ستساعدني الاحوال على ردّ المعروف اليك. بودّي ان اصارحك بأمر... لكنني افضّل ان أدعه لفرصة اخرى. الشمس تسطع في كبد السماء، وقد وضح النهار بما فيه من ملذات العالم المستهتر، ومباهجه الساحرة التي تملأ قاعة اجتماعاتي... اذا دقّ الناقوس الليلي بلسانه الحديدي وفمه النحاسي ذات ساعةٍ في الآذان المتناومة ليلاً. وإذا بتْنَا هنا في مقبرة، وكان يسكنك الف روح نجسٍ. واذا كان هذا المزاج القاتم وهذا الحزن الكئيب قد جفّف جلدك وكثّف دمك، هذا الدم الذي يجري في عروقك ويهدهد أحلامك ويرسم في عينيك ضحكة سخيفة ويمسح خدودك بفرحة مهووسة وإحساس بغيض بالنسبة الى مشاريعي الغريبة. واذا كان باستطاعتك ان تراني وعيناك مغمضتان وتسمعني واذناك مسدودتان وتجيبني وصوتك مخنوق، معتمداً على تفكيرك فقط بدون ان تلجأ الى نظرك وسمعك وهمس كلامك الذي تقطعه الغصة. حينئذ رغم نور النهار الذي يغمرنا بوهجه، أبثّ في أعماق وجدانك افكاري الخفيّة بدون ان أقوم بأي عمل سواه... مع ذلك انا احبك كثيراً واعتقد بأنك أنت ايضاً تكنّ لي محبة

فائقة الى حدّ انك ستطلب مني عندما يقترب أجلي ان أنفّذ ما تطلبه مني، بحق السماء، اكراماً لعينيك.

الملك جون : نعم، أنا على يقين بأنك فاعل. يا هيوبرت الطيب القلب، ألقِ نظرة على هذا الصبي، ليتأكّد لك أنه ثعبان خبيث ناعم الملمس يعترض سبيلي. وحيثما وطأت قدماي الأرض اراه أمامي زاحفاً متربّصاً بي. هل تفهم ما أقول ؟ أرجوك أن تسهر عليّ كالحارس الأمين المتيقّظ لتحميني من شرّه.

هيوبرت : سأسهر عليه ايضاً بيقظة وحذر لأمنعه من اصابتك بأي مكروه، يا صاحب الجلالة.

الملك جون : أشعر بالموت يدنو مني.

هيوبرت : لماذا تقول هذا، يا مولاي ؟

الملك جون : وأنا أهرول الى قبري بعجلة.

هيوبرت : إطمئن، يا صاحب الجلالة، لن يعيش من يمسّك بأذى.

الملك جون : كفى. ها هي السكينة تعود الآن الى قلبي المضطرب. أنا أحبّك، يا هيوبرت... هيا بنا ننطلق معاً. لن أقول لك ماذا اودّ ان افعل لأجلك. لا تنسَ... (يقترب من الملكة الام) الوداع، يا سيدتي الوالدة. سأرسل لك بعض القوّات لتمكث الى جانبكِ ، يا صاحبة الجلالة.

اليونور : لتحلّ عليك بركتي، يا ولدي.

الملك جون (لأرثور) : هذا يكفي انكلترا، يا ابن عمي... سيكون هيوبرت الرجل الذي تحتاج اليه، ويسعك ان تتكل عليه. سيخدمك بكل ما يحق لك من الاخلاص والاحترام. اما أنتم، أيها الرجال، فسيروا نحو مدينة كاليه.

(يخرج الجميع).

المشهد الرابع

في خيمة ملك فرنسا

(يدخل فيليب ملك فرنسا، ثم لويس وبندولف والحاشية).

الملك فيليب : هكذا بسبب عاصفة رفعتْ من الأمواج جبالاً، تفرّقتِ المراكب الحربية وتبدّدت أشلاؤها وفُقِد الاسطول بكامله.

بندولف : مهلاً وصبراً. فكل حال مهما ساء سيتحسّن.

الملك فيليب : ما الذي سيتحسّن بعد هذه الكارثة الفادحة ؟ وقد نزلت بنا هذه الهزيمة الماحقة. مدينة انجيه لم تخسر المعركة، وارثور أصبح اسيراً، وعدد كبير من اصدقائنا قد قُتل. أما الانكليزي المضرج بدمه فلم يعد الى انكلترا، بعد أن تغلّب على كل مقاومة رغم انف فرنسا.

لويس : ان ما استولى عليه الانكليزي قوّى وضعه بمثل هذه السرعة المحسوبة بمهارة فائقة وتدبير حكيم في سباق جنوني لا مثيل له. من ذا الذي قرأ أو سمع رواية انجاز نشيط كهذا ؟

الملك فيليب : سأتحمّل راضياً مديح انكلترا هذا، اذا وجدنا فيه عبرة بعدما ألحق بنا من العار. انظر من يأتي الى هنا. ثم القِ نظرة على هذا الضريح الذي يسوده جوّ سجنٍ ابدي وقد ضمّ إنساناً مظلوماً.

(تدخل كونستانس مشعّثة الشعر).

الملك فيليب (لكونستانس) : أرجوك، أيتها السيدة النبيلة ان ترافقيني.

كونستانس : ماذا تقول ؟ أهذه هي نهاية سلمك ؟

الملك فيليب : صبراً، يا سيدتي، تشجّعي، يا كونستانس.

كونستانس : كلا. انا أرفض نصيحتك وكل ما يرمي الى انهاض الهمم، ما عدا الاقلاع عن اسداء التوجيه الخيّر. لأن الخلاص الحقيقي هو في الموت. فاسمعني جيداً ايها الموت الرحوم. الموت، ويا له من منقذٍ هذا الموت الشهيّ حتى إن كان انحلالاً محنّطاً. ايها الفناء المريح، أَفِقْ من غفوتك اثناء ليلك الابدي. يا لهول ما تخلّفه من البؤس وما أبغض ما تثيره من الهلع المقيت. مع ذلك سأقبّل عظامك البشعة، وسأضع

حدقة عيني في محجرك المجوّف، وسأجعل من دودك خواتم لأصابعي وسأسدّ فمي بترابك النتن، كي أصبح مثلك جيفة كريهة. هيّا، أسرع اليّ أيها الموت، وأنا اعتقد بأنك ستبسم لي، وسأدلّلك كما لو كنت شريك حياتي، هيا هيا تعال اليّ، يا حبيب شقائي.

الملك فيليب : ما هذا التفجع اليائس ؟ هدّئي روعك.

كونستانس : لا، لا. انا لا اريد ان يهدأ بالي ما دام فيّ عرق ينبض لأصرخ : يا ليت لساني كفوّهة المدفع المدوّي، لكنت ارعدت فرائص العالم باسره، وأيقظت في اعماقه رعشة منتفضة امام هذا الهيكل العظميّ المريع الذي يداهمني ولا يسمع صوتي النسائي الخافت الذي يأبي ان يلجأ الى اية وسيلة مفزعة.

بندولف : انّ ما تتلفظين به، يا سيدتي، يمتّ الى الجنون وليس تعبيراً عن الألم.

كونستانس : انت جاحد كافر تفتري عليّ. هذا الشَعْر الذي انتفه يخصّني، انا كونستانس زوجة جوفروَا، وقد خسر أرثور ابني كل ما كان له. أنا لست مجنونة، لا سمحت السماء بذلك. لكن، ربما خسرت نفسي. عليك ان تزوّدني بفلسفة لا تجعلني مهووسة فتكسب ثواباً جليلاً، ايها الكردينال. لأني ما دمت أتمتّع

بكامل قواي العقلية واملك جميع إحساسي بالألم، فما في داخلي من منطق معقول يعلّمني كيف يتسنّى لي أن أتخلّص من كل هذه الشرور، أو يحملني على الانتحار بشنق ذاتي. لو كنت مجنونة لنسيت ابني وفقدته لأجل الحصول على سراب. انا لست مختلّة، بل أنعم بكافة مشاعري وأحسّ بشتى عذاباتي وفواجعي

(تغطّي وجهها بشعرها وتسترسل في النحيب).

الملك فيليب : إرفعي هذه الجدائل. فكم من الحب ألاحظ في هذه الخصل الذهبية الرائعة. ولو سالت دمعةٌ صدفةً من عينيك كاللؤلؤة، لتضافرت عشرة آلاف خيط ذهبي لتلقّي هذه الدمعة الغالية وكوّنت حولها شبكة واقية من آلامنا المشتركة، لأننا في الحقيقة اصدقاء أوفياء لا نفترق بل نظل دائماً أمناء تجمعنا كارثة شاملة.

كونستانس : (تنتف شعرها وتنثره في الهواء) : طِرْ الى انكلترا، اذا شئت.

الملك فيليب : ارجوك ان تُزيحي شعرك عن عينيك.

كونستانس : سأزيحه... ولكن لماذا ؟ عندما إستأصلته من جذوره صرخت : « يا ليت يديّ هاتين تقويان على انقاذ ولدي، كما منحت الحرية لشعري المتناثر في الهواء ». الآن انا احسد شعري هذا على انطلاقته

وسأحاول ردّه الى منشإه، ما دام ولدي المسكين لا يزال سجيناً. يا أبتِ الكردينال، سمعتك تردّد أننا سنشاهد ثانية احباءنا في السماء ونتعرّف اليهم. فان كان هذا صحيحاً سأرى ولدي حتماً. اذ منذ عهد قايين، وهو أوّل ولد ذكر، حتى بين الذين لا يتنشّقون إلا هواء الأمس القريب. لم يولد في العالم ألْطف وأظرف من ابني الحبيب. لكنه الآن معرّض لأن تنهش جسمه أنياب الحزن والفناء، وهو لا يزال برعماً، وسيسلبه ورد خدّيه الطبيعي، ويحفر أخاديد الشيخوخة في جبهته العالية ويجعله فريسة شحوب الحمّى وهزالها، فيموت هكذا ويُبعث حيّاً هكذا. وحين أُلاقيه في رحاب السماوات لن أعرفه أبداً. لذلك أُوقن بأني لن أشاهد ثانية ابني وعزيزي أرثور.

بندولف : ما بالكِ تنوئين تحت وقر العذاب وتستسلمين الى الانهيار ؟

كونستانس : أهكذا تكلمني، يا من حُرمت من نعمة الاولاد ؟

الملك فيليب : أنت مهووسة لما أصابك من الالم بمقدار ما اثارته فيك حسرتك على ولدك.

كونستانس : لقد حلّ الألم في نفسي محلّ ابني الغائب عن عيوني. لا بدّ له من أن ينام في سريره ويذهب ويجيء بمعيّتي، ويتزيّى بمظهره المألوف ويردّد كلماته

الحلوة ويزكّرني بجميع ألطافه ويرتدي ثيابه الخالية التي لم يعد يتسنّى له ان يلبسها. فكل الحق الى جانبي ان انا جننت من شدة اوجاعي. الوداع، يا من تحملت كافة الخسائر التي لحقت بي. فأنا أقدّم لك التعازي بصورة افضل من التي تكرّمت بها انت عليّ. (تنزع قبّعتها عن رأسها). لا أريد ان أترك هذه الزينة على رأسي حين يجتاح ذهني كل هذا التشويش والاسى. يا إلهي، لماذ حرمتني من ابني ارثور، ابني الوسيم ينبوع حياتي وسروري وعزائي وسائر دنياي وسند ترمّلي وشفاء جراحي

(تخرج).

الملك فيليب : أخشى أن تقدم على عمل مؤسف يوحي به اليها قنوطها. سأتبعها لأرى ما سيكون من أمرها.

(يخرج).

لويس : لا شيء في هذا الكون يسعه ان يدخل الفرح الى فؤادي المكلوم. أجد الحياة باهتة كقصة يعاد سردها تكراراً وتصمّ الأذن التي اصابها الطرش في إنسان منهوك القوى. وهذه مرارة العار التي أفسدت حلو مذاق كل ما يخصني وأضحى طعمه كريهاً كالحنظل والخيبة والمذلة.

بندولف : قبل شفاء المرض العضال الشديد الوطأة، وعند عودة

الصحة الى بدن العليل تتضاعف الأزمة في داخله عادةً، لأن الآلام التي تفارقنا تصرّ على إشعارنا لا سيما في الفترة التي تسبق زوالها بما تنطوي عليه من خبث وضراوة. فماذا خسرت بمن فقدته في هذا النهار ؟

لويس : كل ايام مجدي وفرحي وهنائي.

بندولف : لو ربحت في هذا اليوم لخسرت الكثير حتماً في الغد. لكن لا، لا. فالحظ عندما يريد أن يبسم للمرء، لا يُستبعد أن ينظر اليه ايضاً بعين الغضب والتهديد. ومن الغريب ان نفكّر بمقدار خسارة الملك جون الذي أوشك ان يفوز وينتصر على أخصامه. أولم تتكدّر لعلمك بأن أرثور اصبح سجيناً ؟

لويس : بالعكس، غمر السرور قلبي تماماً كما اسعده الحظ للاحتفاظ به كأسير.

بندولف : تفكيرك صبياني نظير ذهنك الفتي. إصغِ الآن اليّ، اذ اني سأكلمك بروح النبوءة. ان مجرد التلفّظ بكلماتي سيزيلَ أقل ما يمكن من الغبار، وأصغر قشّة واخف عقبة من الدرب الذي يؤدي بك الى حقك بعرش انكلترا. ولذلك اسألك ان تتبع حديثي بكل انتباه : جون أخذ أرثور أسيراً. وما دام قلب هذا الولد ينبض بالحياة ستظل الشعلة متّقدة في عينيه ويستحيل على

المغتصب جون أن يحظى بساعة أو دقيقة من الهدوء. ماذا اقول ؟ بل بلحظة سكون وارتياح. لأن إمساك شبح مثله بيد من حديد، لا بدّ من حراسته بعنف كما تمّ أسره وسجنه. ومن يقف على منزلقٍ حادّ الانحدار لا يحجم عن التشبث بأوهى من خيط العنكبوت. ولكي يوطّد جون أقدامه يتحتم على ارثور ان يتقلّص ويزول من عالم الوجود. هكذا كان دوماً حال الامراء، ولم يتمكن مصيرهم من الانتهاء الى غير هذا المآل.

لويس : ولكن ماذا يفيدني انا سقوط الفتى ارثور ؟

بندولف : انت، بإسم زوجتك السيدة بلانش، يسعك ان تطالب بجميع حقوق ارثور.

لويس : وأخسرها كلها بالمحافظة على حياتي، تماماً كما حلّ بهذا الأخير.

بندولف : كم انت حديث السنّ وقليل الخبرة والنضوج بالنسبة الى مشاكل هذا العالم العتيق. جون يتآمر لأجل مصلحتك، وعلى وجودك انت تتآمر الاحداث. ومن يغمس أمانه بالدم الزكي لا يلاقي إلا هدنة ملطخةً بالدماء الدنسة. هذا العمل الذي ادّى اليه اللؤم سينفّر منه قلوب جميع رعاياه ويشحذ نقمتهم عليه الى حدّ انهم يتحيّنون الفرص ليدحرجوا التاج عن رأسه. لن

يكون هناك عواطف مسالمة من وحي السماء ولا اهواء غريزية ولا ايام مغايرة لموسمها ولا عواصف موسمية ولا احداث بديهية لن تُجرّد من اسبابها الواقعية التي تعتبر كالغرائب الفظائية والمعجزات والعلامات الرهيبة والتنبؤات وصرخات السماء التي تشجب في العلاء فكرة الانتقام من جون.

لويس : قد لا يمسّ حياة الفتى ارثور، اذا اطمأن الى سجنه فقط.

بندولف : آه، يا ولدي، عند اول خبر عن إتصالك به، اذ لم يكن ارثور الفتى قد رحل، سيموت حتماً. وعندئذٍ ستبتعد جميع النفوس عن جون وتنقلب عليه. وكلهم سيرحّبون بالتبدّل المفاجئ ويعبّرون عن رغبتهم في التمردّ والسخط على جون لان يديه تلوّثتا بدم بريء. يخيّل اليّ اني ارى الشعب قائماً على قدم وساق. ولكن، ها هي الامور تترتب وتصبح أحسن مما توقعته انا. فلقيط فولكنبريدج هو الآن في انكلترا، ليقوّض المعبد على من فيه ويقضي على روح الدين والتقوى، ولو كان هنا إثنا عشر فرنسيا كطُعم لاصطياد عشرة آلاف انكليزي، أو ككرة ثلج صغيرة تتدحرج من علو شاهق وتصبح كتلةً هائلة تسحقه. يا ولي العهد النبيل، تعال معي لنذهب الى الملك... ان

ما يمكننا ان نستخلصه من هذا التغيير حقاً لعجيب، لا سيما الآن وقد ضاقت جميع الخلائق ذرعاً بهذا الاعتداء السافر. لا بدّ من رحيلنا الى انكلترا لنهزّ عرش الملك.

لويس : أجل، دقّة الحسبان تحقّق أغرب الأعمال. هيّا بنا. فإن أجبت أنت بنعم، لن يقول الملك لا.

(يخرجان).

الفصل الرابع
المشهد الأول

في السجن.

(يدخل هيوبرت واثنان من الجلادين).

هيوبرت (للجلاد الأول) : حمّي لي هذين القضيبين الحديديين.
(للجلاد الثاني): وانت اختبئ خلف هذه الجدرانية.
وحالما أضرب قدمي بالأرض تبرز وتشد الى المقعد
بمتانةٍ وثاق الولد الذي تجده الى جانبي. كن يقظاً.
اخرج الآن وانتبه.

الجلاد الأول : آمل أن تضمن هذه العملية وتتحمّل مسؤوليتها.

هيوبرت : تعالَ الى هنا، ايها الشاب، فلديّ ما اقوله لك.

(يدخل ارثور)

ارثور : نهارك سعيد، يا هيوبرت.

هيوبرت : نهارك سعيد، ايها الامير الصغير.

ارثور : انا اصغر امير، ولي من الحقوق كأكبر أمير... هل انت حزين ؟

هيوبرت : فعلاً. فيما مضى كنت اكثر سروراً ممّا انا الآن عليه.

ارثور : سامحني الله. لا أحد، على ما يظهر، يتسنّى له ان يكون اشد كآبةً مني. مع ذلك انا اتذكر، عندما كنت في فرنسا، عدداً من الوجهاء الذين كانوا يتمنون ان يسيطر عليهم النسيان ليلاً للتغلّب على شعورهم بالحزن نهاراً. بذمتي، لو كنت خارج السجن أرعى خرافي لابتهجت طوال النهار، ولسعدت أيضاً هنا لو لم يخامرني الشكّ بان عمي لا يزال يضمر لي الشر. هو يخافني، وانا اخشاه. فهل الذنب ذنبي إن كنت أنا ابن جوفروا ؟ كلّا ثم كلّا. كم اتمنى ان اكون ابنك شرط ان تحبني، يا هيوبرت

هيوبرت (على حدة) : اذا كلّمته بلهجته البريئة، سيستدرّ شفقتي وإن كانت دفينة. لأعملْ اذاً بسرعة وأبادر الى تنفيذ مهمتي بعجلة.

ارثور : هل أنت مريض، يا هيوبرت ؟ لماذا أراك اليوم شاحب اللون ؟ في الحقيقة، قُلْ لي إن كنت منحرف الصحة قليلاً كي اسهر عليك طوال الليل. أؤكد لك أني أحبك اكثر مما تحبني انت.

هيوبرت (على حدة) : كلماته تأخذ بمجامع قلبي. (بصوت

مرتفع) اقرأ هذا، ايها الفتى ارثور. (يمد اليه ورقة. على حدة، وهو يمسح عينيه) ما هذا التباكي السخيف ؟ ألا أقوى على طرد عذابي الأليم ؟ عليّ ان أتخلّص منه خوفاً من ان يهرب تصميمي وعزمي من عينيّ نظير دموع النساء. (بصوت مرتفع لأرثور) ألا تستطيع القراءة ؟ هل الكتابة غير واضحة ؟

ارثور : بالعكس هي واضحة جداً بالنسبة الى عمل بشع كهذا. هل يتحتم عليك ان تحرق لي عينيّ بهذين القضيبين المحمّيين ؟

هيوبرت : لا بد من ذلك، كما تلاحظ، أيها الفتى.

ارثور : وهل انت عازم على تنفيذ هذا العمل القبيح ؟

هيوبرت : نعم سأقوم به.

ارثور : وهل بلغت بك قساوة القلب الى ارتكاب هذه الفعلة الرهيبة ؟ عندما اصابك مرةً صداع ربطتّ منديلي حول جبينك، وهو منديل رائع زركشتْه لي اميرة شابة، ولم اطالبك بردّه لي. واثناء الليل أمسكتُ مراراً برأسك بين يديّ وسهرتُ عليك طوال ساعات العتمة، وانا اقول لك : « ماذا تريد ؟ أين وجعك ؟ وأية خدمة تودّ أن أؤدّيها لك ؟ » كم من الاولاد الفقراء ظلّوا هادئين في مثل وضعك، ولم تبدر منهم كلمة مزعجة. أمّا أنت فقد تسنّى لك أن يسهر عليك

ويمرّضك أمير. مهما يكن الامر، لا أستغرب ان تظنّ بأن حنوّي هو عطف مصطنع وتعتبره حيلة. إعتقد ما يحلو لك. واذا، لا سمح الله، شئت ان تسيئ معاملتي، فلا تتردّد لحظةً... هل تريد ان تفقأ لي عينيّ اللتين لم تشاءا أن تُلقيا عليك نظرة واحدة لائمة ؟

هيوبرت : لقد اقسمتُ على تنفيذ ما أُمرتُ به. ولا بدّ لي من احراقهما بقضيب حديدي محمّى.

ارثور : آه ! ليس من بشري إلّا في هذا العهد القاسي كالفولاذ، يودّ تنفيذ صنيع مشين كهذا. فالحديد مهما كان حامياً محمرّاً حين يدنو من عيني ستقاومه دموعي وتطفئ جذوة سعيره وداعةُ براءتي. نعم، ثم يصدأ ويتلف لمجرد اقتراب اللهيب الذي يلتهم بصري. فهل تكون أعند من الحديد المحمّى كأنه معدّ للتطريق ؟ آه، لو جاءني أحد الملائكة وأنبأني بأن هيوبرت سيفقأ لي عينيّ لما صدّقته، إلّا اذا خرج هذا من فم هيوبرت ذاته.

هيوبرت (يضرب الارض بقدمه) : اليّ، اليّ.

(يدخل الجلادان حاملَيْن حبالاً وقضيبين حديديين وغيرها).

هيوبرت : إصنعا ما أطلبه منكما.

ارثور : أنجُ بنفسك، يا هيوبرت، أنجُ بنفسك. لقد أصيبت

عيناي منذ الآن بالعمى، لمجرد رؤيتي منظر هؤلاء الرجلين الرهيبين.

هيوبرت : (للجلادين) : اليّ بقضيب الحديد. هيا اربطاه هنا.

(يأخذ هيوبرت القضيب المحمّى المحمرّ، ويمسك الجلادان بأرثور لربطه بوثاق الى المقعد).

ارثور : (للجلادَين) : وا أسفاه. ما حاجتكما الى هذه القسوة الوحشية التي تسيطر عليكما ؟ انا لا يسعني ان أقاومها. سيجنّ جنوني. فبحقّ السماء، يا هيوبرت، لا تربطني. هيا اسمتع الى توسّلي واصرف هذين الرجلَيْن. وانا اعدك بأن اظلّ وديعاً كالحمل. لن اتحرّك، ولن اقفز ولن أنطق بكلمة واحدة. لن اتطلّع الى هذا القضيب الحديدي بغضب. فأبعد هذين الرجلين عني واصرفهما. وانا اسامحك بكل العذابات التي اذقتني اياها.

هيوبرت : (للجلادين) : انتظراني خارجاً، واتركاني وحدي معه.

الجلّاد الأول : أنا مغتبط لأني لم اشترك بهذه الفعلة الشنعاء.

(يخرج الجلادان).

ارثور : يا للاسف. لقد طردت صديقاً له سحنة غريبة، لكن طيبة قلبه ظاهرة. (لهيوبرت) دعه يرجع. أتمنى ان تعيد شفقته الحياة الى عواطفك.

هيوبرت : هيا، يا فتى، استعد للامر.

ارثور : ألم يبقَ من وسيلة لتغيير تصميمك هذا ؟

هيوبرت : كلا، ليس لي من إجراء آخر مقرّر لك، سوى إفقادك بصرك.

ارثور : ايتها السماء، لو كان في عينك جزء قذى أو حبة تراب أو بعوضة او شعرة تائهة أو أصغر ذرّة تضايق هذه النظرة الهائمة لأحسست بمقدار ما يولّده من الألم هذا التصرّف الحقير ولحملك على لمس دناءة هذا العمل الىريع.

هيوبرت : هل هذا كل ما تصارحني به ؟ يجدر بك ان تصون لسانك.

ارثور : يا هيوبرت، لن يكون اعتراض شخصين كثيراً في الدفاع عن بصر عينين إثنتين. لا تطلب مني ان أصون لساني. نعم، لا تطلب ذلك مني، يا هيوبرت، إلّا اذا شئت ان تقطع لساني وأن تبقي لي نور عينيّ. ارجوك ان تحفظ لي نظري، وإن لم يفدني إلا بمشاهدتك انت فقط على الدوام. ألَا تجد ان القضيب قد برد ولن يأتي بأي مفعول.

هيوبرت : يمكنني ان احمّيه ثانية، يا ولدي.

ارثور : لا، صدّقني ان النار قد خبا لظاها وأصابها الخمود، اذ أدركت أنها تأججت أصلاً لرفاهيتي، واذا بها تُستخدم

لمضايقتي بعنف لا أستحقّه. انظر انت بنفسك الى هذه الجمرة التي لم يبقَ فيها اية قدرة على إلحاق الضرر بأحد. فقد أطفأت رياح السماء هذه الجذوة التي همدت وغطّاها رماد الندم.

هيوبرت : انا باستطاعتي ان أزكي لهيبها ثانية، يا ولدي.

ارثور : اذا واصلت مسعاك، لن تتوصل إلّا الى جلب العار على نفسك، وتمسي نظير وحش ضار محصور في زاوية ومضطر الى المهاجمة إذْ لا يجد مفرّاً للتراجع أو للهرب. ان كل ما توسّلته لايقاع الأذى بي لم يطاوعك عليه ضميرك، فعمدت الى استنفاد كل امكانياتك للتغلّب عليه بدون رحمة، ولا شفقة.

هيوبرت : لا بأس، سترى بذاتك في الأيام القادمة، انى لا اريد أن أمسّ عينيك بسوء، ولو منحني عمك كل ما لديه من كنوز الأرض. مع اني اقسمت له، يا ولدي، ان افقأهما بهذا القضيب الحديدي المحمّى.

ارثور : انت الآن تتكلّم بصورة معقولة، يا هيوبرت، وكنت منذ برهة مختبئاً خلف قناع من الطغيان والغموض.

هيوبرت : هدّئ روعك، ولا تنطق بكلمة اخرى بعد الآن. الوداع. لا بدّ من ايهام عمّك بأنك أصبحت في عالم الأموات. وأنا عازم على تزويد جواسيسه، هؤلاء الكلاب المسعورة، بتقارير مغلوطة مضلّلة.

فاستحلفك بكل عزيز لديك ان لا تقلق ولا تخش اي مكروه.

ارثور : تباركت السماء. اشكرك جزيل الشكر، يا هيوبرت.

هيوبرت : اسكت، ولا تتلفّظ بأية عبارة، اخرى. لنخرج معاً بسريّة تامّة. لأني اعرّض حياتي هكذا لأخطار رهيبة.

(يخرجان).

المشهد الثاني

في قاعة القصر الكبرى.

(يدخل الملك جون وعلى رأسه التاج، ثم بمبروك وسالزبري، وغيرهما من اللوردات. يصعد الملك للجلوس على عرشه).

الملك جون : ها أنا أجلس ثانية على عرشي والتاج يكلّل رأسي. وكلكم تنظرون اليّ بعيون البهجة والفرح.

بمبروك : هذا التتويج الثاني، لو لم يلذّ لك القيام به، لم يكن له من موجب. اذ سبق وتُوجّت شرعياً قبل الآن، ولم تُنتزع منك سلطتك العليا في اي وقت من الأوقات، ولم يزعزع إيمان الشعب بك أي تمرّد او انقلاب، ولم يعكّر صفو أمن البلاد أي شغب ناجم عن حسم أو طمع بإقامة نظام جديد أو إنشاء دولة فضلى.

سالزبري : هكذا جاءت مضاعفة الأبهة لتزيد وهج لعبةٍ زاخرة بالامجاد، ولمعان الذهب الخالص، وإبراز بياض الزنبق الناصع، ورش العطر على زهور البنفسج ومسح صفحة المرآة لإجلاء ما تعكسه من صُوَر، وإضافة لون جديد على الوان قوس قزح او محاولة رفع المشعل الى كبد السماء المزدانة بما لا يحصى من الكواكب والنجوم، وكل هذه زوائد غير ضرورية لا حاجة ماسّة تفرضها.

بمبروك : لقد تمّ ذلك لإرضاء خاطرك، يا صاحب الجلالة. اذ جاءت نظير قصة قديمة تُحكى للمرة الثانية مع ان الجميع لا يزالون يتذكرونها.

سالزبري : انا لست من هذا الرأي، لأن عملاً كهذا يمحي من الاذهان روعة الاحتفال الاول الاساسي، وكالرياح الهوجاء المتلاعبة بالشراع الهادئ، يشوّش الأفكار في أعماق الضمائر ويخلق الظنون في النوايا الطيبة ويثير الشبهات في حقوق موطّدة بما يُلقى عليها الآن من وشاح جديد.

بمبروك : العمال الذين يجتهدون لتحسين انتاجهم يفقدون مهارتهم في سبيل طموحهم، غالباً بمحاولة ستر غلطهم، أو بتسبيب العمى للعين وهم يكحلون اهدابها بقصد تجميلها. وهكذا عندما يُراد اصلاح

شائبة طفيفة كثيراً ما يتّسع الخرق فيبدو العيب أبشع مما كان عليه قبل محاولة ازالته.

سالزبري : قبل تتويجك الثاني، همستُ بمحاذير هذه الرغبة لتلافي إجرائها حسب ما ارتأيته في هذا الموضوع. لكن سموّك لم تُعِر قولي اذناً صاغية. وهكذا سرّنا جميعاً تحقيق هذه الرغبة لأن ارادتنا توقّفت عند مشيئة جلالتك.

الملك جون : لقد ابديت لكم بعض الاسباب التي دعتني الى إجراء هذا التتويج الثاني، واعتقد بأنها مقنعة. وعندما تزول مخاوفي تماماً سأطلعكم على أهم الأسباب التي أدّت الى تشبّثي بذلك. وبانتظار هذه الفرصة ارجو ان تدلّوني على التماديات التي تتمنّون تلافيها وستلمسون مدى ما أبذله من الاهتمام للنزول عند طلباتكم.

بمبروك : انا الذي امثّل صوت الجميع واستطيع ان اعبّر عما يخالج اذهان الاغلبية من أفكار، باسمهم وباسمي الشخصي، ولا سيما لأجل سلامتك، يا صاحب الجلالة، ألْتمس منك ان تطلق سراح أرثور. لأن أسره يطلق الالسنة في تضخيم الاستياء العام لإثارة هذا الكلام امامك. واخيراً بما ان ما تمتلكه بالسلم يعود اليك بالحق، لماذا تدع الخوف يضنيك، كسيْفٍ مسلّط على رأس الجاني، من جرّاء سجْن نسيبك

اللطيف بغية طمس معالم وجوده وتجاهله وإهماله بدون علم ولا معرفة ولا تربية لائقة بمقامه الرفيع ؟ ولكي لا تترك مجالاً لأخصامك البارزين، ولا تستهدف مضاعفة الأقاويل بهذه المناسبة، يجمل بك ان تبادر، يا صاحب الجلالة، الى منح ارثور حريته واطلاق سراحه. اجل، نحن كلنا نلتمس منك هذا، لا لأنه في صالحنا فقط بل لأن مصلحتنا هي مصلحتك ايضاً. لذا نسألك بإلحاح ان تعتبر مطالبتنا بحرّيّته هي من صميم مصلحتك المقدسة.

الملك جون : ليكن لكم ما تريدون. ها انا اضع مصيره في تصرف إدارتكم.

(يدخل هيوبرت)

الملك جون (يواصل كلامه) : ما وراءك من الأخبار، يا هيوبرت ؟

(الملك يجر هيوبرت جانباً ويحدّثه بصوت خافت).

بمبروك (يشير للّوردات الى هيوبرت) : هذا هو الرجل الذي كان مزمعاً ان يقوم بالعمل الدموي، وقد أرى احد اصدقائي الأمر الخطّي الصادر إليه بهذا المعنى. وها هي صورة الشرّ الشنيعة بادية في عينيه، ومظهره المريب يدلّ على ما يعتمل في أعماقه من اضطراب، واخشى ان يكون قد نفذّ ما نتمنّى عدم وقوعه.

سالزبري : ان وفاءه للملك يطغى على ضميره نظير المنادين الساهرين على تقليص خطر التهديد بالهجوم والإبادة بين جبهتي قتال. وها هو تأثّره يتفاقم الى حد الانفجار.

بمبروك : واذا انفجر، اخاف ان تنجلي الحقيقة البشعة عن مقتل ولد وديع كالحمل.

الملك جون (يتقدّم) : لا يسعني ان امنع إمتداد يد المنيّة، ايها السادة الاجلاء، رغم رغبتي الملحة في العفو. لقد سبق السيف العزل، وموضوع إلتماسكم لم تعد استجابته في حيّز الامكان لاني علمت ان ارثور قد توفّي اثناء الليل الفائت.

سالزبري : انا خشيت ان لا يكون لعلّته من شفاء.

بمبروك : فعلاً، أنا على يقين بانه أشرف على الموت، حتى قبل ان يشعر هو ذاته بمرضه. وهذا ما تحتّمت الإجابة عليه هنا أوْ في أي مكان آخر.

الملك جون (للوردات) : لماذا تلقون عليّ هذه النظرات اللائمة ؟ هل تعتقدون بأن يدي تقوى على ايقاف المصير عن مواصلة مسيرته، أو أنّ لي سلطاناً على جعل الحياة تنبض باستمرار في عروق البشر ؟

سالزبري (لسائر اللوردات) : نوايا الخداع بادية للعيان. ومن العار على العظماء أن يرتكبوا هذه الشائنة الدنيئة.

(للملك) هل لك ان تربح في هذه اللعبة ؟ على كل حال، الوداع.

بمبروك : تمهّل قليلاً، يا سيدي سالزبري. انا ذاهب بصحبتك لأبحث عن ميراث هذا الولد المسكين، وعن ضريح بسيط يضم جثمان هذا المغدور. اذ يكفي مدى ثلاثة أقدام لإحتواء هذا الفتى الذي أوشك ان يحكم جزيرتنا. لكن العالم الفاسد الشرير عاجله بحرمانه نعمة الحياة. وهذه قضية لا يجوز الإغضاء عنها بمثل هذا الاستخفاف. فآلامنا على غيابه تطغى على عقولنا، وقد توقّعت أنا هذه النهاية الكئيبة قبل حدوثها.

(يخرج اللوردات).

الملك جون : الحزن والاسف ينهشان فؤادي. انا متحسّر على ما جرى. اذ ليس من اساس متين يمكن أن يرتكز على إراقة الدماء، ولا وجود لأمن يضمنه موت الآخرين.

(يدخل رسول).

الملك جون : الخوف ظاهر في نظراتك. أين اللون الوردي الذي كنت أشاهده على خدودك ؟ أمّا هذا الجوّ المكفهرّ فلا تنقشع غيومه الدكناء بدون عاصفة ترسل زخّات من المطر. أطلق سبيل خصمك... كيف الحال في فرنسا ؟

الرسول : من فرنسا الى انكلترا... لم يشهد احد مثل هذه القوّات في حملة انطلقت من قلب ارضنا الى خارج البلاد. لقد عرف أعداؤك كيف يستخدمون السرعة التي إمتزت أنت بها في الماضي. إذْ عندما كان من المفروض ان تعلم باستعدادهم، بلغنا النبأ بأنهم قد وصلوا جميعاً الى المكان المقصود.

الملك جون : اين كان رجال امننا يسكرون ؟ واين كانوا يغطّون في نومهم العميق ؟ أين يقظة والدتي، وكيف تجمّعت كل هذه الجيوش في فرنسا، وهي غير عالمة بما جرى ؟

الرسول : يا مليكي المفدّى، لقد سدّ التراب اذنيْ والدتك النبيلة التي توفيت في أول يوم من نيسان. وعلى ما علمت، يا مولاي، ماتت السيدة كونستانس قبلها بثلاثة ايام في ازمة جنونية. فقد بلغني ذلك بغموض عن طريق الشائعات. ولست ادري ان كان هذا النبأ صحيحاً او لا.

الملك جون : اوقفي مسيرتك، ايتها الظروف المريعة. هيا ننشئ خط دفاع معاً، الى ان اتفاهم انا ومعاونيّ المستائين. ماذا تقول ؟ امّي ماتت ؟ آه، ماذا حلّ من نحس بمملكتي في فرنسا ؟ من أصدر الأوامر بالتحرك الى اراضينا الانكليزية ؟

الرسول : هو ولي العهد، يا مولاي.

(يدخل اللقيط وبيار دي بومْفرات).

الملك جون : طاش صوابي بما نقلته اليّ من انباء مشؤومة. (للقيط) على اثر هذه الأخبار، ماذا يقول الناس من حولك ؟ لا تحاول ان تحشو رأسي بأنباء سيّئة أخرى، لانه غرق في ما تلقّيته الآن منها.

اللقيط : امرك مطاع. اذا كنت خائفاً من سماع المزيد وهو الأبشع، فهذا المزيد المفاجئ سينهال، لا محالة، على رأسك عاجلاً أو آجلاً.

الملك جون : اعذرني، يا ابن عمي. لقد خنقتني امواج المدّ المتصاعد. وليس أمامي الآن إلّا استعادة انفاسي برفع رأسي قليلاً فوق الأمواج المتلاطمة. وانا على اتمّ الأهبة لسماع مختلف الاصوات المتعالية مهما تضاربت إفاداتها.

اللقيط : كيف تسلّلت، ونجوت من بين رجال الدين المحيطين بك ؟ ها هي المبالغ التي جمعتها تفسّر هذا اللغز. لكنني عندما اجتزت البلد لأعود اليك وجدت الشعب مستعداً بصورة غريبة لقبول كل الاحتمالات، وقد أثّرت الشائعات عليه وسيطرت الاحلام الشاذة، وهو لا يدري ماذا يجب ان يخشى. لكنني اصطحبت في رجوعي عرّافاً من أحد شوارع

بومْفرات حيث صادفته، وقد تعقّبه رجال مستطلعون كان ينشد لهم قوافي رديئة ثقيلة على السمع، مفادها ان جلالتك قبل ظهر عيد الصعود القادم ستتنازل عن العرش.

الملك جون (لبيار) : انت صاحب رؤى خيالية. من الذي تكلّم هكذا ؟

بيار دي بومفرات : شعوري المسبق يتوقّع ان تتحقق هذه النبوءة في حينها.

الملك جون : يا هيوبرت، أبعد عني هذا المنافق الدجال، اسجنه ثم اشنقه في نفس النهار الذي يدّعي اني اثناءه سأتنازل عن العرش. ضعه في مكان حريز وعدْ اليّ لأني بحاجة ماسّة اليك. (يخرج هيوبرت بصحبة بيار دي بومْفرات. يتابع الملك كلامه للقيط). يا ابن عمي الحبيب، هل بلغتك أخبار جديدة ؟ هل تدري من أتى ؟

اللقيط : الجيوش الفرنسية، يا مولاي، لا يتحدث الجميع إلا عن وصولها، وقد صادفت السيد بيكوت والسيد سالزبري، وعيونهما تقدح شرراً أحمر مثل نار متأججة، كما صادفت غيرهما من الذاهبين للبحث عن ضريح ارثور الذي قُتل غدراً هذه الليلة، حسب ما يقال، بناءً على طلبك.

الملك جون : أيها النسيب الكريم، اذهب واختلط بصفوف

التجمّعات، اذ لديّ وسيلة لاسترداد ما فقدته من عطف ومساندة، وعُدْ اليّ بمن تستميلهم.

اللقيط : ها أنا ذاهب لآتيك بهم.

الملك جون : حسناً. عجّل بأسرع ما يمكنك، ولا تتأخر في الرجوع الى هنا. اذ يتحتّم عليّ أن لا أدع لي من أخصام بين رعاياي خصوصاً عندما يصل اعدائي الأجانب لنشر الرعب والبلبلة في مدن مملكتي، وهم يطبّلون ويزمّرون لتمهيد اجتياح هائل يقومون به وشيكاً. عليك ان تستمدّ السرعة من الإله عطارد المجنّح القدمين، بل بسرعة الفكر والبرق، ثم أن تطير من لدنهم وتعود اليّ لتطمئنني.

اللقيط : كن على يقين، بأني من مرور الوقت العَجول سأستعير السرعة اللازمة لرجوعي.

(يخرج).

الملك جون : هذا حديث رجل وجيه نبيل. (للرسول) إلْحَق به، اذ ربما احتاج الى رسول يؤمّن الاتصال بيني وبين أعواني، فتكون أنت جاهزاً لهذه المهمّة.

الرسول : بكل طيبة خاطر، يا مولاي الكريم.

(يخرج).

الملك جون : ما اشدّ وقع موت أمّي على قلبي المنسحق.

(يدخل هيوبرت)

هيوبرت : يا مولاي، يقال ان خمسة أقمار شوهدت الليلة، اربعة منها ثابتة والخامس يدور كالدوّامة في حركة عجيبة حول الاربعة الباقية.

الملك جون : أتقول خمسة أقمار ؟

هيوبرت : الشيوخ والعجائز خرجوا كلهم الى الشوارع، وهم ينشرون نبوءات مقلقة، وخبر موت ارثور الشاب يجري على كل لسان. يتحدثون عنه ويهزون رؤوسهم ويهمسون في الآذان، وكل متكلم يصافح يد سامعه بينما تبدو على مَن ينصت، سمات الخوف ويقطّب حاجبيه ويميل برأسه يميناً ويساراً وينقّل نظراته في كل مكان. لقد رأيت حدّاداً يقف مذهولاً ومطرقته مرفوعة في الهواء، بينما الحديد المحمّى يبرد فوق السندان ليتلقّف فاغراً فمه تقرير خيّاط بيده مقصه ومقياسه وهو واقف مرتدياً نعله مقلوباً من شدة استعجاله، وهو يتكلم عن آلاف الفرنسيين المحاربين الذين تأهبوا لخوض المعركة في مقاطعة كَنْتْ. وهناك حِرَفِيّ آخر هزيل غير نظيف جاء ليقاطع روايته ويتحدّث عن موت ارثور.

الملك جون : لماذا أتيت تهوّل عليّ بكل هذه التفاصيل ؟ لماذا تؤكّد بإصرار موت الفتى ارثور ؟ لا بدّ من ان تكون يدك قد اشتركت في اغتياله. وإن كانت اعزّ أمنياتي

أن أشاهده ميتاً، فانت شجعتني على ذلك لتنال مأربك في قتله.

هيوبرت : كيف تقول انك لم تكن لك اية رغبة في التخلص منه، يا مولاي ؟ الم تحرضني انت بنفسك على إزالته من عالم الوجود ؟

الملك جون : لعنة الملوك المنكوبي الحظ، تكمن في وجود مساعدين حولهم على شاكلتك، هم كالعبيد الذين يعتبرون فورة الغضب كأمر يجبرهم على خطف روح آمنة، ويظنون غمضة جفن يقوم بها ملكهم سماحاً باغتيال من يهدّد سلامته، بينما هو يقطّب حاجبيه بحركة مزاجيّة بدون تفكير واعٍ أو سابق تصميم وإصرار.

هيوبرت : ها هوذا توقيعك وخاتمك يثبت ان ما قمت أنا به قدْ تمّ بناءً على طلبك الصريح.

الملك جون : أُفٍّ من بلادتك. حالما يدخل آخر حساب بين الأرض والسماء في طور التصفية، تقيم هذا التوقيع وهذا الخاتم شهادةً دامغة على جريرتي. كم وكم تدفع رؤية آلة الشر الى ارتكاب الجرائم. فلو لم تكن انت هنا الى جانبي كمساند وَسَمَتْك يد الطبيعة بالميل الى العنف وحمّستك على إتيان عمل مشين،

لم تتبادر الى ذهني جريمة الإغتيال هذه. لكني لاحظت فظاعة مظهرك وأيقنت بأهليّتك لهذه الدناءة الدموية وباستعدادك لتنفيذ هذه المغامرة البشعة، ففاتحتك بغموض بأمر مقتل أرثور، وانت لاكتساب عطف ملك، لم يردعك ضميرك الميت عن سفك دم أمير صغير.

هيوبرت : لكن، يا مولاي ...

الملك جون : لو كنت هززت رأسك استنكاراً، أو أبديت تردداً عندما قلت لك بإبهام ما كنت أنوي تحقيقه، أوْ ألْقيت نظرة عتب وحذر على محياي، كأنك تودّ أن تعبّر لي بكلمات معيّنة عن معارضتك، لكان ردعني الحياء عما شجعني عليه صمتك العميق، ولكان تمنّعك نهاني عن الإقدام على موافقتي الضمنية. لكنك فهمت مقصدي وتبنّيت فكرتي وصمّمت على ارتكاب الجريمة. اجل، انت وافقت بدون اي اعتراض او تردّد على تلويث سمعتك بهذا الاثم، وقامت يدك القاسية بتنفيذ ما كانت شفاهنا نحن الاثنين تأبى خجلاً ان تتلفّظ باسمه. اليك عني. أخرج من هنا، ولا تُرِني وجهك بعد الآن. ها هم نبلاء مملكتي ينفضّون عني، وسلطتي لم يعد يهابها احد. حتى ابوابي إقتحمها اعدائي الذين داسوا كرامتي في

عقر داري. وفي أعماق نفسي ضمن مملكتي الواسعة، وهذه البقعة المضرّجة بالدماء، هبّت رياح العداء والحرب الاهلية لتضخّم توبيخ ضميري تجاه اغتيال ابن عمي البريء.

هيوبرت : انت تصرّ على محاربة أعدائك، وأنا أقوم بالمصالحة بينك وبين نفسك. فالشاب ارثور هو على قيد الحياة. ويدي لا تزال طاهرة نقيّة لم تتلوّث بأي دم مسفوك، وقلبي لم يداخله ابداً أي شعور بالميل الى القتل والإجرام. لقد تحاملتَ على الطبيعة المتمثلة في ملامحي التي رغم خشونة مظهرها، تنمّ عن روح مسالمة هي أجمل بكثير من أن تكون جزار ولد مظلوم.

الملك جون : أتقول ان ارثور لا يزال حياً ؟ آه، إذهب وانقل الى أعواني في الحكم هذا النبأ السار لتهميد غضبهم المتأجج، وحرّضهم على الخضوع والامتثال ثانية لسلطتي. ثم سامحني على النعوت والتعليقات التي تفوّهت بها اثناء فورة غضبي عليك. لأن استيائي كان كالاعمى، ومنظر الدم الذي ظننته مهدوراً قد صوّرك في نظري بهيئة وحشية اكثر مما كنت انت عليه وقتئذ. لا تردّ على قولي، بل اذهب حالاً واجلب مساعديّ الحانقين الى هنا. هيّا أسرع في الذهاب،

لأن رجائي هذا في نظري بطيء للغاية. هيا إجْرِ بأسرع ما يمكن.

(يخرجان).

المشهد الثالث

أمام برج في القلعة

(يظهر أرثور في أعلى السور).

ارثور : السور مرتفع جداً، ومع ذلك سأقفز الى الأرض. فيا أيها التراب كن شفوقاً ولا تسبّب لي أي ضرر. تقريباً لا أحد يعرفني هنا. ومن كان يعرفني إلْتبس عليه ما ارتديه من ثياب كساها الغبار كأني في ملابس تنكّريّة. انا خائف، ومع ذلك سأغامر بقفزي. فاذا وصلت الى الارض بدون اي كسر في اعضائي سأجد الف وسيلة لأهرب. إذْ إنّي أفضّل ان اموت بعيداً أثناء هربي، على أن أموت وانا امكث هنا. (يقفز). اليّ، ساعدوني ايها الأصحاب لأن روح عمي كامنة في هذه الحجارة. استودع السماء نفسي، ولتحتفظ انكلترا بعظامي (يموت).

(يدخل بمبروك وسالزبري وبيكوت).

سالزبري : يا سادتي، سألاقيه في سان إدْمنْسْدري. فبذلك يكون خلاصنا، وعلينا ان نقتبل هذه المنّة حيال الخطر والهلاك.

بمبروك : من أتى بهذه الرسالة من قِبَل الكردينال ؟

سالزبري : كونت ميلون، وهو سيد نبيل من فرنسا يحبّذ شخصيّاً تصرّف ولي العهد، ويكنّ له كل محبة وتقدير، وها هو يشرح الوضع بوضوح اكثر مما في هذه الاسطر الوجيزة.

بيكوت : هيا بنا نذهب اليه منذ صباح الغد الباكر.

سالزبري : او بالحري، لنذهب اليه حالاً. اذ يلزمنا يومان طويلان سيراً على الاقدام للوصول اليه، يا مولاي.

(يدخل اللقيط)

اللقيط : يسرني ان ألْقاكم ثانية في بحر هذا النهار، يا سادتي المستائين. فالملك يبلغكم على لساني بأنه يرجو منكم الحضور اليه فوراً.

سالزبري : الملك لم يعد يهمه أمرنا. ونحن لا نودّ ان يكون شرفنا النقي بطانة معطفه الملطّخ المهلهل. ولا ان نتبع خطاه التي تنشر في كل مكان آثار الدم كيفما توجّه. عُدْ اليه وأبلغه اننا مطّلعون على قبائحه اكثر مما يظن.

اللقيط : مهما شرحت له افكاركم في هذا الموضوع، اعتقد بأن رقّة كلامكم سيكون لها أجمل الوقع عليه.

سالزبري : هو امتعاضنا وليست لياقتنا ما يناسب الظرف الحاضر.
اللقيط : لكن امتعاضكم ليس له سوى مبرّر هزيل، امّا لياقتكم فتتمتع في هذه الايام بكل الحقوق.
بمبروك : يا سيدي، بسبب قلة صبرنا أضحت كل الموجبات ممكنة.
اللقيط : هذا صحيح، وأهمها خطورة الجرح الأليم اكثر من سواه.
سالزبري : هذا هو السجين المقصود. (يبصر جسم ارثور) من هو هذا المتمدّد ها هنا ؟
بمبروك : ايها الموت المزدان ببراءة أمير طاهر، أوليس على وجه الأرض حفرة لتواري هذا الصنيع الاجرامي ؟
سالزبري : جريمة القتل تركته هكذا مكشوفاً، كأنها خجلت من هذا العمل الفظيع الذي يستوجب الانتقام.
بيكوت : أو بالحري، بعد أن وصل صباه الوسيم الى القبر، وجدته اروع وأجلّ من ان يحتويه المثوى الأخير.
سالزبري : (للقيط) : يا سرْ ريتشرد، ماذا تعتبر هذا الصنيع ؟ هل رأيت في حياتك أوْ قرأت أو تصوّرت أنك تستطيع أن تعتقد بإمكان حدوث ذلك حتى إن رأيته بأمّ عينك ؟ وهل يتوصل تفكيرك في هذا الواقع المفجع الى تصوّر حدوث مثله ؟ ها هوذا العمل الأقوى أي حمْل التاج، أوْ بالحري تاج التيجان يشكل الدافع الى

الاغتيال، بل ها هي الدناءة الدموية والوحشية الشرسة والفظاعة الاغرب من كل ما رأته العين الكليلة، أو الإثارة العجيبة التي تستدرّ دموع صاحب الضمير المستيقظ بعد طول الإغفاء.

بمبروك : كل جرائم القتل السابقة صفح عنها هذا الاحمق المتساهل، لأنه فريد لا يجاريه احد. فليخلع اذاً وشاح القداسة والطهارة على جرائمه اللاحقة. وليعتبر كمهزلة اسوأ مجازره بالنسبة الى هذا المشهد الوحشي.

اللقيط : حقاً هذا العمل الدموي مشين، لأنه تدنيس قامت به يد بربرية وان يكن من صنع البشر.

سالزبري : اذا كان حقا من صنع الانسان، فهذا يلقي بعض الضوء على ما ستأتينا به الأيام المقبلة، وتبيّن لنا ان يد هيوبرت الجانية هي التي اقترفت هذا الاثم البغيض. لذا احرّم على نفسي الخضوع لهذا الملك المستهتر. فانا اجثو أمام هذه الحياة العزيزة المسلوبة، وأحرق امام هذا الكمال النادر بخور نذر مقدس، هو النذر الذي يحتّم عليّ عدم التمتّع بمباهج الدنيا والامتناع عن تبديد الافراح التي يتذوّقها الاعتدال وحسن النية، قبل أن أمجّد ذراعي المشترك في الانتقام الرهيب.

بمبروك وبيكوت : نحن نؤيد أقوالك بأمانة دينيّة صادقة.

(يدخل هيوبرت)

هيوبرت : لقد بذلت جهداً جهيداً في البحث عنك، يا مولاي، فأرثور لا يزال على قيد الحياة، لذا أرسل الملك في طلبكم.

سالزبري : ها هوذا شخص جسور لا يهاب الموت (لهيوبرت) أُخرج من هنا، أيها الوقح الخسيس.

هيوبرت : انا لست خسيساً ولا وقحاً.

سالزبري (يستلّ سيفه) : هل يتحمّ عليّ أن اخالف القانون ؟

اللقيط : سيفك يلمع ويبهر، يا سيدي. ارجوك ان تعيده الى غمده.

سالزبري : لا، ليس قبل أن أغمده في جلد أحد القتلة.

هيوبرت : اذهب من هنا، يا سيدي سالزبري. ارجوك أن تمضي وحق السماء، انا اعلم ان سيفي حاد فتاك نظير سيفك البتار. وأنا أتمنّى، يا مولاي، ان لا تنسى ذاتك، ولا ان تجابه مخاطر دفاعي عن نفسي حين أضطر الى ذلك. إذ إني لا أخشى إلا غضبك المحتمل، ونسيانك قدرتك وعظمتك ونبلك.

بيكوت : اليك عني، أيها القذر. أوتبلغ بك الوقاحة الى التعرّض لنبيل مثلي ؟

هيوبرت : انا لست خائفاً على حياتي. وبامكاني ان أدافع عن براءتي حيال أيٍّ من الملوك اذا وجّه الي اتهاماً ما.

سالزبري : انت قاتل شرس رهيب.

هيوبرت : لا تجبرني على ان أصبح كما تدّعي. حتى الآن ظلّت صفحتي بيضاء ناصعة، ولم ارتكب اي جرم. فمن يخطئ في كلامه لا ينطق بالصواب، ومن لا يقول الحقيقة هو بكل صراحة كاذب منافق.

بمبروك : تعال وقطّعني إرباً إرباً.

اللقيط : ارجوك ان تهدّئ روعك.

سالزبري : تنحّ عن هنا، وإلّا سلخت جلدك عن لحمك، يا فولكنبريدج.

اللقيط : يجدر بك ان تسلخ جلد ابليس، يا سالزبري. اذا نظرت إليّ جانبيّاً، أو إذا حرّكت رجلك باعتباط أو إذا سمحت لغضبك الطائش بأن يضايقني، سأرديك قتيلاً. استلّ سيفك عاجلاً وإلّا حطّمتك انت وسيفك، حتى لتظنّ أن الشيطان حضر من جهنّم ليقاتلك.

بيكوت : ماذا تنوي ان تفعل، يا من تدعى فولكنبريدج ؟ هل تريد أن تساعد قاتلاً مجرماً ؟

هيوبرت : يا سيدي بيكوت، انا لست هذا ولا ذاك.

بيكوت : من الذي قضى على الأمير اذاً ؟

هيوبرت : لم تمضِ بعد ساعة على مغادرتي اياه وهو ينعم بكامل عافيته. أنا أحترمه وأحبه وسأظلّ بقية عمري أندب فقدْ حياة شخصه العزيز على قلبي لو كان هذا النبأ حقيقياً.

سالزبري : لا تثق بما تجود به مآقيه من دموع التمساح. لأن الخياة ليست غريبة عن تباكيه، هو المدرَّب على هذه المهنة الخبيثة، والماهر في التمويه والتشبّه بمن يعطف فعلاً على البراءة. تعالوا نذهب معاً من هنا، يا جميع الذين تكرهون هول الدناءة الفظيعة المنبعثة نتانتها من جثث الأموات، ورائحة هذه الجريمة تكاد تخنقني.

بيكوت : هيا بنا الى مدينة بَري لننضمّ الى جماعة ولي العهد.

بمبروك : (لهيوبرت) : قل للملك ان باستطاعته ان يأتي الى هنا للاجتماع بنا

(يخرج اللوردات).

اللقيط : هذا عالم قائم بذاته... (لهيوبرت) هل أطلعت على هذا الفعل الغريب ؟ ان كنت انت ارتكبت جريمة القتل هذه التي تطالها يد العدالة غير المتهاونة فانت هالك لا محالة، يا هيوبرت.

هيوبرت : أصغ ِ اليّ على الأقل، يا سيدي...

اللقيط : لا يغربْ عن بالك انك انت ايضاً من الهالكين... إذْ ليس هناك أشدّ بشاعة من صنيعك، بل انت هالك الف مرة اكثر من رئيس الابالسة لوسيفورس. وليس هناك شيطان في اعماق الجحيم أحطّ مما ستكون عليه لو قتلت هذا الولد البرئ.

هيوبرت : أقسم لك بحياتي...

اللقيط : بما أنك وافقت على إتمام هذا العمل الشرس ليس أمامك إلا القنوط، واذا احتجت الى حبل لتشنق نفسك، أقول لك ان أوهى خيط من نسيج العنكبوت يكفي لخنقك، وحَسْبك قضيب خيزران ليكون عود مشنقتك. واذا شئت أن تموت غرقاً فقليل من الماء في فنجان يكون بالنسبة اليك أوفر من لجّة مياه المحيط لخنق شقيّ قاتل نظيرك. ان اقتناعي بإجرامك ليس له من حدود.

هيوبرت : إن كنت بالعمل أو بالموافقة أو بالفكر، قد أجرمت لأني سلبت حياة عذبة كان جسم من التراب ينعم ببهجتها، أودّ ان لا توجد في الجحيم عذابات كافية لمعاقبتي. أؤكد لك اني غادرته وهو يتمتّع بتمام الصحة والعافية.

اللقيط : إذهب واحمله على ذراعيك. فقد طاش صوابي، ويبدو لي اني ضللت سواء السبيل بين الأشواك والمخاطر التي يحفل بها هذا العالم الفاسد. (يحمل هيوبرت الجثة على ذراعيه) كم هو هكذا سهل ان تحمل انكلترا بأجمعها. فمن هذا الجثمان صعدت الى السماء مملكته المغتصبة وحياته وحقوقه وما تحويه كل هذه المملكة من ايمان راسخ. والآن ليس أمام

انكلترا سوى ان تربط وتبدّد وتمزّق بأسنانها الحادة خيرات هذه المملكة المنهارة بعد ازدهارها. الآن، لأجل هذه العظمة التي نخرها سوس الخيانة يهزّ اسد الحرب لبدته بغضب ويزأر لمنظر السلام الرائع المجندل. والآن تنظّم قوّات الخارج واشمئزازات الداخل صفوفاً صفوفاً. وتنقضّ الفوضى كالغراب الحائم حول الجيفة النتنة ويبحث عن حتميّة سقوط السلطة المنتحلة. ويحظى بالسعادة من يستطيع أن يخرج سالماً من دوّامة هذه العاصفة الهوجاء الجارفة... احمل هذا الفتى واتبعني بسرعة. فأنا ذاهب الى الملك. وهناك سنجد الف قضية تنتظر الحلّ. فحتى السماء ذاتها تقطّب جبينها حيال تجاوزات اهل الأرض.

(يخرجون).

الفصل الخامس
المشهد الأول

في قاعة داخل القصر.

(يدخل الملك جون يتبعه بندولف حاملاً تاجاً ثم يدخل بعض الاشخاص).

الملك جون : هكذا وضعتُ بين يديك هالة مجدي.
بندولف : استرجعها من يدي كما لو كنت تستلم من البابا نفسه عظمتك وسلطتك المطلقة.

(يعيد التاج الى الملك).

الملك جون : الآن اصبح لزاماً عليك ان تفي بوعدك المقدس. إذهب واجتمع بالفرنسيين واستخدم كل النفوذ الذي تستمده من قداسته، وأوقف زحفهم قبل ان نندحر. لأن نبلاءنا المستائين اخذوا يتململون ويتمردون، وشعبنا يرفض الخضوع، ومن اعماق قلبه أقسم يمين

الولاء والحب لشخص أجنبي، لملك من خارج البلاد. انت وحدك تستطيع ان تصدّ هذا التمادي والإنحراف. فلا تتأخر اذاً عن التحرك بسرعة لأن المرض خطير ويتحتم ايجاد الدواء حالاً لئلا نضطر بالتالي الى معالجة نتائج العلة المستعصية.

بندولف : لقد اثرت انا هذه العاصفة بعد مخالفتك مشيئة البابا. ولكن بما انك اعلنت الآن خضوعك وإزعانك سيُخمد صوتي انفاس هذه الحرب ويعيد ايام الصفاء الى هذه البلاد المضطربة. وبعد أن تُقسم جلالتك يمين الولاء للبابا، تذكّر جيداً ان اليوم عيد الصعود، وإني عازم على مقابلة الفرنسيين ودعوتهم الى إلْقاء السلاح. (يخرج).

الملك جون : اليوم عيد الصعود ؟ ألم يصرّح العرّاف اني في هذا النهار سأتنازل عن العرش ؟ ها هوذا هذا التوقّع قد تمّ. وكنت اظن انني سأفعل ذلك تحت وطأة الخوف والاكراه. لكن، لله الحمد تصرّفت طائعاً راضياً.

(يدخل اللقيط).

اللقيط : مقاطعة كَنْتْ استسلمت برمّتها. وقصر دوفر وحده لا يزال عاصياً. لندن استقبلت وليّ العهد كضيف صديق ومعه قوّاته. ونبلاؤك بدون تلكّؤ ذهبوا ليقدموا

مساعدتهم لعدوّك. وهناك مطاردة مريعة تضخّمها الفوضى قد لاحقت وحاصرت اصدقاءك القلائل.

الملك جون : ألم يشأ اللوردات ان يعودوا اليّ عندما علموا بأن ارثور لا يزال حياً ؟

اللقيط : لقد وجدوه ميتاً فألْقوه الى الشارع لأنه أمسى كصندوق فارغ سلبت منه جوهرة الحياة يدٌ آثمة جهنمية.

الملك جون : لقد اكّد لي هيوبرت المراوغ انه على قيد الحياة.

اللقيط : بحياة رأسي، قال لك ما كان يظنه الحقيقة. لكن لماذا اراك تنهار ؟ لماذا تبدو حزيناً ؟ كن عظيماً في تصرفاتك كما كنت شامخاً في افكارك. من الضروري ان لا يرى العالم دلائل الخوف والأسى تسيطر على نظراتك الملكية. سِرْ حسب ما يقتضيه الزمان، اي هادن من يهادنك وهدّد من يهدّدك وجابه الجسارة التي يتستّر وراءها الخوف من المجهول. وهكذا ترى جماعات الصغار الذين يحذون عادةً حذو الكبار يبادرون الى اتخاذ المواقف الباسلة الصلبة. تقدّم دائماً وكن لامعاً نظير إله الحرب عندما يرتدي ملابس القتال. إعتصم بالإقدام والطموح والثقة بالنفس. هل تريد أن يأتي أخصامك لاختطاف الأسد من عرينه، ويهاجموه ويَدَعوه يرتجف هلعاً؟ هذا ما يجب أن

لا يقال علناً. هيا الى السهل، وانطلق من خلف هذه الابواب وجابه التمرد واضبطه قبل ان يكرّ عليك ويصرعك.

الملك جون : قابلت مندوب البابا، وعقدت معه صلحاً مشرّفاً، فوعدني بأن يصرف فِرَق الجنود التي يقودها ولي العهد.

اللقيط : يا لها من عصابة شريرة حقيرة. عندما يطأ الأغراب أرضنا سنهتف بشعارات مسالمة ونقترح تسويةً وتفسيراً ومفاوضة وهدنة اضطرارية لمواجهة اجتياح الجيش. هل يعقل ان يقتحم سهولنا صبيّ لم تبرز بعد لحيته، ساذج مدلّل عاش متنعماً بالحرير ويحاول ان يُظهر قوته على ارض معادية، وهو ينشر اعلامه الباهتة المرفوعة بفتور واستهتار بدون ان يلقى أية مقاومة ؟ هيا، يا مليكي، لنهبّ الى السلاح. ربما لم يتمكّن الكردينال من الحصول على السلم، وإن توصّل الى تحقيقه يجب ان يعلن على الملأ أننا كنا نستعد للدفاع عن اراضينا.

الملك جون : تولّج انت تدبير هذه المسألة.

اللقيط : هيا اذاً الى العمل بجدّ ونشاط. انا واثق بأن قواتنا تستطيع ان تقف في وجه عدوّ اكبر من الذي نواجهه.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في سهل قريب من سان ادْمَنْدْسْبري

(يدخل لويس وسالزبري وميلون وبمبروك وبيكوت،
وجميعهم مدجّجون بالسلاح مع جنودهم).

لويس : (لميلون ويسلمه ورقة) : سيدي ميلون، أُطلبْ كتابة نسخة من هذه الورقة، وضَعْها في مكان أمين بين محفوظاتنا. ثم أرجع الاصليلة الى هؤلاء اللوردات، حتى يتمكنوا نظيرنا، باعادة قراءة بنود هذه الاتفاقية، من تذكُّر ما تعاقدنا عليه وأقسمنا اليمين للتقيد به. وهكذا يلتزم كل منا بواجباته وحقوقه.

سالزبري : لن نحيد من جهتنا عن هذه المعاهدة، لكن. يا ولي العهد، مع اننا لم نقسم على الولاء التلقائي الأعمى، صدّقني، ايها الامير اني لست مسروراً بان تحتاج مساوئ العصر الى ثورة بغيضة لاستئصالها والى شفاء القروح الناجمة عن جراح قديمة وعن أُخرى مستجدّة. أؤكد لك ان ما يضايقني هو اضطراري ربما الى استلال سيفي لترميل نساء هذا البلد، وا أسفاه، كما يتبادر الى الذهن عند استدعائي انا سالزبري الى الانقاذ والى الدفاع عن الشرف المهان. لكن، هذه هي علّة هذا الزمان الذي يحملنا على

اللجوء الى سواعدنا للحفاظ على حقوقنا وردّ الظلم والعدوان عن شعبنا. أليس مستهجناً، يا اصدقائي، أن نولد نحن ابناء هذه الجزيرة على ارضها وننساق وراء شخص غريب عنّا لنضخّم صفوف أعدائنا ؟ (يمسح دمعة تدحرجت على خدّه) لا يسعني ان امتنع عن النحيب على وصولنا الى هذا الدرك الأسفل لكي ندعم نبلاء ارض بعيدة وننضوي تحت ألْوية مجهولة هنا، اجل ها هنا. كم أتمنى، يا شعبي، ان تتمكن من إتّقاء هذه الكارثة وان تكون سواعد إلٰه البحر نبتون قادرة على حملك ونقلك الى شواطئ اخرى وإن وثنيةً. هناك على الأقل تتشابك أيدي هذين الجيشين وتتكاتف جهودهما ويمتزج دمهما الغاضب في محاربة الاعداء بدلاً من اراقته في تقاتل الأشقّاء.

(يشهق في البكاء).

لويس : هذا نبل اخلاق منك. فالعواطف السامية التي تتحلّى بها تدعو الى الترفّع عن الدنايا. ما أشرف القتال القائم على السعي الى توطيد السلام، وعلى نداء الضمير الحي. دعني أمسح ندى هذا الترفّع السامي الذي يتساقط كحبات من الفضة على خديك النحيلين. لقد رقّ قلبي دوماً لدموع المرأة التي تفيض من عواطفها الطبيعية. لكن زرفك دموع الشيخوخة هذه يثير

كوامن اللوعة في فؤادي ويبهر أنظاري ويضاعف وجومي لرؤية القبة الزرقاء مكفهرة بما ترسله من بروق وصواعق تجرح هذا القلب الكبير. ارجوك ان تدع هذه الدموع لأولادِ مَن لم يشاهدوا الدنيا المحرومة صاخبةً غضبى، وهي تجابه الرفاه المسرف والولائم الغاصّة بالأفراح وحلو المجاملات الجوفاء. تعال، تعال أغرُف من غنائم الازدهار الطافح بالترف قبل ان أسبقك انا لويس الى استنفاده. وانتم أيضاً ايها النبلاء، أنتم الذين تضمّون قوّاتكم الى سواعدنا... خيّل اليّ منذ لحظة ان ملاكاً يتكلّم. وها هو موفد البابا قد اتى بخطى حثيثة ليمدّ لنا يد العون من العلاء ضامناً لنا هكذا غوث السماء، ومساندة حقنا بافعاله واقواله المباركة.

(يدخل بندولف على رأس موكب يتبعه).

بندولف : السلام عليك، يا امير فرنسا النبيل. اليك ما اريد ان ابلغك اياه : الملك جون صالَحَ روما واستسلم الى مشيئتها بعد أن قاوم طويلاً رغبات طائفته واضحى حليف الحاضرة العظيمة والكرسي الرسولي. فاطوِ اذاً أعلامك المهدّدة واكبتْ ميولك الوحشية الى الحرب والدمار، ونظير الاسد الذي يتناول طعامه من يد

مروّضة، دعه يربض بهدوء عند اقدام السلام خالعاً
عنه كل المظاهر المريبة.

لويس : سامحني، يا صاحب السيادة، انا غير مستعد للتراجع. فانا عريق المنبت رفيع المقام لا أنحني امام من هو ادنى مني مرتبةً، ولن أصبح أداة في يد أية سلطة مهما علا مستواها. انت اشعلت بنفسك جذوة الحرب المنطفئة بيني وبين المملكة المتلملة، وأنت ازكيت لهيب هذا الحريق المفتعل حتى بات من العسير عليك، ايها النافخ الضعيف النفس ان تطفئ النيران المندلعة التي اشعلتها. لقد علّمتني انت ان ارى الحق بوجهه الحقيقي. ونبّهتني الى لقبي ووظيفتي في هذا المضمار، وحرّضتني على مواجهة العدوان بقلب غير هيّاب، وها انت آتٍ لتقول لي ان جون قد صالح روما. ما هو هذا السلام بالنسبة اليّ ؟ أنا بفضل مولدي الملكي أطالب طبعاً بعد الشاب ارثور، بأن تنتقل هذه الارض الى ملكيتي. والآن وقد اصبح نصفها محتلًّا يتحتم عليّ ان اتراجع لأن جون صالَحَ روما، وعقد معها معاهدة سلام. هل انا احد عبيد روما ؟ ماذا دفعت روما، وأي رجال استخدمت وأية ذخيرة ارسلت لمساعدتي في حملتي هذه ؟ أوَلم اتحمّل انا وحدي جميع التكاليف والمسؤوليات ؟

ومَن غيري وغير رعاياي الذين لبّوا ندائي نُجهد نفوسنا جميعاً لنصرة هذه القضية ومواصلة الحرب. اولم اسمع سكان هذه الجزيرة يهتفون « يحيا الملك » عندما مررت في مدنهم ؟ أوليس لديّ افضل الخرائط لكسب هذه اللعبة السهلة هنا والمحافظة على تاجي وعرشي ؟ وتريدني ان امنح الآن خصمي هذه النقاط التي تنازل هو عنها. كلّا ثم كلّا، وحق السماء، هذا لن يكون ابداً.

بندولف : انت لا ترى سوى المظهر الخارجي في هذا الموضوع.

لويس : الخارجي او الداخلي، انا لا اتراجع عما عزمت عليه، طالما لم أحظَ بالفوز الذي منّيتُ به نفسي وبنيت عليه الآمال العريضة، وقبل ان اغلق جبهة القتال هذه المشرّفة، وأن أجمع نخبة الفرَق المتحمّسة لأضمن النصر وانتزع الكرامة الغالية من شدق الخطر والموت. (يسمع صوت بوق) بماذا تنبئنا نبرات هذه الموسيقى الحادّة، يا ترى ؟

(يدخل اللقيط وتتبعه فرقة من الحرس).

اللقيط : طبقاً لحقوق الشعب الملكية، أطلب المقابلة، وأنا مفوّض للتداول (لبندولف) انا قادم من قِبَل الملك، يا مولى ميلانو، لأطّلع على ما جئتَ لأجله. وبناءً على

جوابك، سأعرف كيف اتصرّف بموجب السلطة التي خُولتُها.

بندولف : ولي العهد يمانع بإصرار، ولا يريد أن يقبل بأية هدنة تلتمسها، ويعلن صراحةً انه لن يلقي السلاح.

اللقيط : بحق كل الدم الذي سيريقه الغضب المُحقّ، هذا الشاب ينطق بعين الصواب. (لولي العهد) وعلى هذا الاساس، اسمعوا ما يقوله ملكنا الانكليزي الذي أتكلّم بإسمه. جلالته مستعدّ، وكل الحق بجانبه، وهو يبتسم مستهجناً هذه الحجج المبتذلة الواهية التي شننتم هجومكم بالاستناد اليها، وهذه المجزرة العشوائية الرعناء والتجمع غير المعقول والتصرّف الصبياني والفرق الفوضوية، أجل هو مستعدّ لأن يضرب بضراوةٍ محاربيكم الأقزام وجيشكم الهزيل ويطردهم جميعاً من اراضيه. أمّا الساعد الذي استطاع ان يجلدكم عند بابكم وأجبركم على المغامرة بقفزة خطرة، وأن يغطّسكم نظير دلاء في آبار خفيّة، وأن يجعلكم تتمرّغون في أقذار اسطبله، وان يلعب بكم كأحجار الشطرنج، وان يحملكم على معايشة الخنازير القذرة وعلى الاختباء في الكهوف والسجون المظلمة وعلى الارتجاف لمجرد سماع أول صيحة تنطلق من حنجرة حامي الوطن الذي تظنّونه صوت

إنكليزي مسلّح، فهل تعتبرونه ضعيفاً هنا ؟ كلا ثم كلا، اعلموا ان الملك الباسل كامل العدّة والعدد، وكالنسر يحلّق فوق اسواره المنيعة، لينقضّ على العدوّ المقترب. (لسالزبري وللوردات) وانتم ايها المنحطّون المناوئون الناكرو الجميل، يا أشباه نيرون الطاغية، يا من تمزّقون صدر أمّكم الحبيبة انكلترا التي تحمرّ خجلاً من خيانتكم السافرة : لان نساءكم وبناتكم يتبعننا بوجوه شاحبة جارياتٍ وراء طبولنا، وقد قلب لهن حظهن العاثر ظهر المجنّ، وتحوّلت خواتمهن الى قفازات حديدية جارحة، وإبَرهن الى رماح حادة، ورقّة قلوبهن الى مزاج دموي شرس.

لويس : كفى عنتريّات، يا هذا، أدِرْ ظهرك وغادرنا بسلام. نحن لا ننكر أن لسانك طَلِق أكثر من لساننا، ونتمنى لك دوام الصحة التامة. فإن وقتي اثمن من ان أضيّعه بصحبة رجل كثير اللغو مثلك.

بندولف : دعني أتكلم.

اللقيط : لا، أنا أريد أن أتكلم.

لويس : لن استمع الى أحد منكما. لتقرع الطبول وليرتفع صوت الحرب عالياً مدوياً كهزيم الرعد للدفاع عن مصالحنا ولتثبيت أقدام جنودنا ها هنا.

اللقيط : بلا شك سيرتفع صوتِ طبولكم عندما تُقرع بشدّة، تماماً كما سيكون شأنكم حين تنهزمون وتتبدّد

صفوفكم. (لولي العهد) أيقظ الصدى المتناوم بقرع طبولك المزعجة، وحالما تنتشر اصوات هذه الطبول سترسل هي بدورها جواباً مدوياً يحاكي صوت طبولنا المتفوّقة. فتقرع مرة ثانية وثالثة نظير طبولك التي تبلغ عنان السماء وتطغى على قصف الرعود التي تصمّ الآذان. اذ بدون الاتكال على هذا الموفد المتأرجح الذي أستخدمه على سبيل التمويه والتسلية لا بسبب الحاجة اليه، يقترب جون المحارب، وعلى جبينه ترتسم اشارة الموت الزؤام، ووظيفته اليوم هي القضاء على آلاف الفرنسيين.

لويس : دعوا طبولكم تقرع لنرى مقدار هذا الخطر الداهم.

اللقيط : كن على يقين، يا ولي العهد، بإنك ستواجهه حتماً.

(يخرج الجميع).

المشهد الثالث

في ساحة المعركة

(يدخل الملك جون وهيوبرت).

الملك جون : اخبرني كيف سينتهي نهارنا، يا هيوبرت ؟

هيوبرت : اخشى أن يكون سيئاً. كيف حالك، يا صاحب الجلالة ؟

الملك جون : الحمّى التي تشوي عقولنا منذ زمن بعيد لا تزال تعذبني كثيراً. واشعر بأن قلبي يتفتّت ألماً.

(يدخل رسول).

الرسول (للملك) : يا مولاي، ابن عمك الباسل فولكنبريدج يرجو جلالتك ان تغادر ساحة القتال وأن تعلمه أي طريق ستسلك ؟

الملك جون : قل له اني سأسلك طريق سوينْسْتاد باتجاه الدير.

الرسول : تشجّع، فإن المدد الكبير الذي كان ولي العهد ينتظره قد غرق في البحر منذ ثلاث ليالٍ عند رمال كوذْوين، وقد نقل هذا الخبر الى رتشرد. اما الفرنسيون فيقاتلون بفتور وهم ينسحبون.

الملك جون : وا أسفاه ! هذه الحمّى المستبدة يستعر لهيبها في أحشائي ولا يتيح لي الاحتفال بهذا الحدث السارّ. فلنمشِ الى سوينْسْتاد. احضروا لي محملي بسرعة، فقواي قد خارت وأخشى ان يصيبني الدوار.

المشهد الرابع

في قسم آخر من ساحة المعركة.

(يدخل سالزبري وبمبروك وبيكوت وغيرهم).

سالزبري : لم اكن ادري بأن للملك كل هؤلاء الاصدقاء المخلصين.

بمبروك : لنعاود الكرّة ونردّ للفرنسيين حماسهم، لأننا اذا انهاروا سنسقط نحن أيضاً.

سالزبري : هذا الشيطان اللقيط فالكنبريدج، رغم حراجة موقفنا، يوجّه وحده سير المعركة.

بمبروك : يقال ان الملك جون أُصيب بمرض خطير اضطره الى مغادرة ميدان القتال.

(يدخل ميلون جريحاً يحمله بعض الجنود).

ميلون : خذوني الى ثوّار انكلترا الموجودين ها هنا.

سالزبري : عندما كنّا ننعم بالهدوء، كانت لنا ألْقاب أخرى.

بمبروك : هذا هو الكونت ميلون.

سالزبري : وهو مصاب بجرح خطير.

ميلون : أهربوا، يا نبلاء انكلترا، وإلّا ذهبتم ضحية الخيانة وهلكتم. ابتعدوا عن البؤرة التي تُحاك حولها خيوط الدسيسة والثورة، واستضيفوا الموالين المبعدين.

إبحثوا عن الملك جون وارتموا على اقدامه متوسّلين.
لأن الفرنسي اذا اصبح سيد الموقف في هذا النهار،
سيكافئكم على تواطئكم معه بقطع رؤوسكم جميعاً
في الحال. وقد أقسم مثلي ومثل كثيرين غيري على
مذبح سان ادْمنْدْسْبري، أي ذات المكان الذي أقسمنا
فيه اليمين معاً، بأن نخصّك بصداقتنا الحميمة وولائنا
الدائم.

سالزبري : هل هذا ممكن ؟ هل هذا صحيح ؟

ميلون : بما أن الموت رابض امام ناظري، فأنا لا أملك الآن
إلّا بقية من حياة، كتمثال من الشمع يذوب ويتشوّه
تجاه حرارة النار الملتهبة. فماذا في الدنيا يحملني على
الكذب حين لا يفيد النفاق ؟ لماذا اذاً أنحاز الى
المواقف الخاطئة بما ان الحقيقة تقضي عليّ بأن
أموت ها هنا. اكرّر قولي، في حال ظفر لويس، ثقوا
بأنكم ستكونون ضحية الخداع إن أبصرت عيونكم
فجرا جديداً يبزغ من الشرق. وابتداءً من هذه الليلة
التي تحمل فيها الرياح العاصفة دخاناً يغمر القمّة
المشتعلة امام وجه الشمس المائلة الى الغروب بنورها
الخافت عند آخر النهار، اجل منذ هذه الليلة
المشؤومة ستلفظون آخر انفاسكم وتنالون هكذا على
آخر جريرة في حياتكم كلها، جزاء خيانتكم الآثمة

التي تفسحون من خلالها المجال لانتصار لويس. فلا تنسوني لدى اتصالكم بشخص يدعى هيوبرت، وهو من انصار مليككم. أبلغوه اني حريص على صداقته. لأن ذكرى جدّي الذي كان إنكليزياً تحرّض ضميري على الاعتراف بحقيقة ما جرى. وعلى سبيل المكافأة، ارجو أن تأخذوني من هنا بعيداً عن الضجّة والشائعات المنبعثة من ساحة القتال والقائلة بأني أرضى باقتبال مختلف الأفكار بسلام، وبافتراق نفسي عن جسدي عبر التأملات والمقاصد الخيّرة.

سالزبري : نحن نصدّقك. ولتكن نفسي ملعونة اذا لم تفرحني هذه المناسبة السعيدة التي أتاحت لي الإقلاع عن الهرب بدناءة. تعالوا نتصرّف كالموج الذي يتراجع ويتضاءل ويضمحلّ. لنترك في هذا المكان عواطفنا المتدفّقة ومسيرتنا غير المنتظمة ولنسرع بسلام وخضوع تامّ الى ملكنا الكبير جون، وهو بمثابة نسر واسع الجناحين يضمّنا كلنا تحت رعايته. (لميلون) ستُعِينك سواعدنا على الانتقال من هنا، لأني أرى صورة الآلام المبرّحة التي يرسمها الموت في عينيك. هيا بنا نجدّ في السير، يا اصحابي. فهذا اتجاه جديد وتبديل ملائم مشكور يعيد إلينا حقنا القديم.

(يخرجون مصطحبين ميلون).

المشهد الخامس

في المعسكر الفرنسي.

(يدخل لويس وحاشيته).

لويس : يخيّل اليّ ان الشمس في طرف السماء آسفة على غيابها الوشيك. لذا راحت تصبغ غرب الفلك بلون الأرجوان، بينما الانكليز يقيسون مدى اتّساع أراضيهم، وهم ينسحبون بتمهّل وإبطاء. آه من هذه الخاتمة التي انتهت بشجاعة، مع أننا في طفرة قذائف مدافعنا بعد عمل كهذا دموي غير مُجْدٍ، ودّعناهم وطوينا ببهجة وسرور أعلامنا الممزّقة التي كانت تخصّ آخر من احتل ساحة القتال وكاد أن يصبح سيدها.

(يدخل رسول).

الرسول : أين اميري، ولي العهد ؟

لويس : هو هنا. ما الخبر ؟

الرسول : قُتل كونت ميلون، بعد ان أقنع قادة الانكليز على الانسحاب ثانية. وهكذا فُقِد المدد الذي تمنّيت وترقّبت وصوله طويلاً، يا صاحب السموّ، قبل أن تغرق قرب رمال كوذْوين.

لويس : ما أقسى هذه الصدمة الهدامة. ألَا فلتحلَّ عليك اللعنة التي ارجو من صميم قلبي أن تكون من نصيبك. لم أتوقّع أن أُمسي حزيناً كما هو حالي الآن. من قال لي ان الملك جون هرب قبل ساعة أو ساعتين من هبوط العتمة وانفصال جيشَيْنا المنهوكَيْن.

الرسول : إن من انبأك بذلك نقل اليك الحقيقة الأكيدة.

لويس : حسناً. لنظل هذا المساء قابعين في معسكرنا تحت الحراسة المشدّدة. فلن يطلع النهار إلّا وتكون الفرصة سانحة لبناء مستقبل أفضل.

(يخرجون).

المشهد السادس

في جوار دير سوينْستاد، عند هبوط المساء.

(يدخل اللقيط وهيوبرت من جهتين مختلفتين).

هيوبرت : من القادم الى هنا ؟ تكلم، تكلم بسرعة أو أطلق النار عليك.

اللقيط : انا صديق، وأنت من تكون ؟

هيوبرت : انا من جماعة البريطانيين.

اللقيط : اين أنت ذاهب ؟

هيوبرت : ماذا يهمك هذا الأمر ؟ هل أتدخّل انا في شؤونك

الخاصة، كما تفعل، يا صاح ؟

اللقيط : انت هيوبرت على ما أظن ؟

هيوبرت : ظنك في محله. وانا اريد ان أعتبرك من أصدقائي، لأنك عرفت صوتي. فقل لي من أنت ؟

اللقيط : أنا مَن شئت، ويمكنك أن تجد فيّ صاحباً إنحدر من سلالة بلانتاجيني.

هيوبرت : انت تذكّرني بأمور لا ترضيني لأنك أنت وظلام الليل وضعتماني في موقف حرج... أيها الجندي الشجاع، سامحني لأن اذني لم تألف صوتك من قبل.

اللقيط : إقترب، اقترب، وكُفَّ عن المجاملة. ما وراءك من أخبار ؟

هيوبرت : كنت مارًّا من هنا تحت جنح الظلام أبحث عنك.

اللقيط : هيا عجّل وقل لي لماذا.

هيوبرت : لديّ نبأ وقع في أول الليل الدامس وهو يبعث على اليأس والهلع.

اللقيط : هيا هيا، أسمِعْني هذا الخبر المشؤوم. أنا لست امرأة لأخاف وأفقد وعيي.

هيوبرت : اخشى ان يكون احد الرهبان قد دسّ السم للملك. اذ اني تركته فاقد الأعصاب. فهربت وجئت لأطلعك على هذه الكارثة كي يتسنى لك ان تتَّخذ الحيطة والحذر لمواجهة هذه الازمة المفاجئة وإن وصلتُ اليك متأخراً.

اللقيط : وكيف تناول السم؟ مَن ذاق طعامه قبل أن يأكل منه؟

هيوبرت : راهب على ما قيل، هو خائن خسيس تمزقت احشاؤه بغتةً. مع أن الملك لا يزال قادراً على النطق، وربما ساعدته الاسعافات اللازمة على البقاء حيّاً.

اللقيط : ومن تركت الى جانب صاحب الجلالة ؟

هيوبرت : ألم تعلم بأن جميع اللوردات عادوا بصحبة الامير هنري ؟ وبناءً على رغبته الملحّة سامحهم، وهم الآن جميعهم يحيطون بجلالته.

اللقيط : كُفَّ عن إظهار انزعاجك. أيتها السماء القديرة، أعيننا. سأقول لك، يا هيوبرت، ان نصف رجالي عندما مرّوا هذه الليلة بالشاطئ الرملي، فاجأتهم أمواج المدّ في منطقة لنكولن وابتلعتهم. ولأني كنت على صهوة جوادي تمكّنت من الخلاص. فهيّا بنا ننطلق من هذا المكان. ارجو ان تقودني الى الملك، لأني أخاف ان يموت قبل وصولي اليه.

(يدخل بمبروك)

بمبروك : الملك لا يزال قادراً على النطق. وهو مقتنع بأنه اذا نُقل الى الهواء الطلق سيشفى من الآلام المبرّحة التي يعانيها على أثر تناوله السمّ المدسوس في طعامه.

هنري : جيئوا به الى هنا ومدّدوه في الحديقة. ألا يزال يهذي ؟

بمبروك : هو الآن هادئ اكثر مما كان عليه عندما غادرته أنت. ومنذ هنيهة كان ينشد.

هنري : ما أعجب المرض وما أغربه. في الحقيقة عندما يشتدّ الوجع لا يعود الانسان يشعر به بوضوح. فالموت بعد أن يقضي على الاجزاء العضويّة يترك فيها قليلاً من الاحساس ويحاصر الذهن ليشلّه تباعاً، وينزل به الأعطاب بصورة متواصلة تجعل العناصر الغريبة المهاجمة تتسابق للسيطرة التامة على أعضاء الجسم واحداً تلو الآخر. ومن أعجب الامور ان يدفع الموت ضحيّته حتى الى الانشاد أحياناً. انا الطائر الوحيد المتحدّر من هذا الباشق الهزيل الشاحب اللون، يسعني ان أترنّم بنشيد الموت المفجع، وأن أُخرِج من أوتار صوتي السريع التلف لحناً يهدهد جسمه ونفسه الى الأبد ويلهيه ويشغله.

سالزبري : تشجّع، ايها الامير، لانك أتيت الى هذا العالم لتجسّد هيئة التصميم الذي تركتْه الطبيعة لنا بدون شكل واضح ولا صقل أو تنميق.

(يدخل بيكوت ومعه بعض الخدم يحملون الملك جون وهو جالس على مقعد).

الملك جون : أجل، آمالي الآن تستند الى سواعد وفيّة. ولست بحاجة الى الخروج من النافذة ولا من الباب. وفي

أعماق نفسي بشائر صيف حارّ طويل يجعل احشائي تتمزق من الألم. انا لم أعد سوى هيئة مشوّشة كأنها مرسومة بريشة على الورق، واشعر بأني أتلوّى تحت تأثير الحرارة التي تبعثها النار حولنا.

هنري : كيف حالك الآن، يا صاحب الجلالة ؟

الملك جون : لا اشعر بالارتياح، لأني مسموم ومنازع، وأنا متألّم هالك. ولا احد منكم يريد أن يطلب من الشتاء ان يضع أصابعه المجلَّدة بين فكّيّ، لا احد، منكم ينوي ان يحوّل انهر مملكتي لتجري في بطني وتبرّد امعائي المشتعلة، اجل لا احد يودّ ان يلتمس من الرياح الشمالية ان تهبّ وترطّب شفتيّ بقبلة النسيم العليل، ويخفف عذابي الأليم بجليد الصقيع. أنا لا أتطلّب الكثير، بل أتوسل اليكم للحصول على انجع علاج يخفف آلامي. وانتم أبخل من الانسان العقوق تمنعون عني هذه المواساة.

هنري : انا أتساءل لماذا لم تُزوَّد دموعي بالمقدرة اللازمة لشفائك ؟

الملك جون : لأن ما تحويه من الملح ساخن جدا. وفي جوفي جحيم يؤجج السمّ سعيره كأن أَلْف شيطان ينفّذون حكم اعدامي بانتزاع حياتي من بين ضلوعي بأعنف أسلوب مستطاع.

(يدخل اللقيط).

اللقيط : السرعة القصوى التي أوصلتني اليك في هذه الساعة لأشاهد جلالتك تكاد تخنق أنفاسي من شدة اللهاث.

الملك جون : لقد وصلتَ في الوقت المناسب، يا ابن العم، لتغمض اجفاني المتثاقلة. لأن الحروق انهكت قواي، والأشرعة التي كانت تسيّر سفينة عمري لم يبق منها سوى خيوط واهية كنسيج العنكبوت، وقلبي لم يعد يقوى على الخفقان ببطء لأسمع الخبر الذي تأتيني به. بعد ذلك لن يبقى من كل ما تبصره الآن إلّا حفنة من تراب وظلّ ملكية تنهار وتتدهور في هوّة العدم.

اللقيط : ولي العهد يستعدّ للمجيء الى هذا المقرّ. والله يعلم كيف سنستقبله ونردّ عليه بعد ان فُقدتْ خيرة الجنود التي كانت تتأهّب للانسحاب فعاجلتْها بغتةً أمواج البحر العاتية وأغرقتها في طوفان هادر غير مرتقب.

(يموت الملك جون).

سالزبري : انت تهمس بهذه الأنباء المشؤومة في أذنٍ استولت عليها قبضة المنيّة الخانقة. وا أسفاه، خسارتنا بك فادحة، يا مولاي المفدّى. منذ هنيهة كنت ملكنا، والآن لم يبقَ منك سوى جثة هامدة.

هنري : هذه هي مهمّتي وهذا هو مصيري. أيّ أمن بقي لي في هذه الدنيا وأي أمل وأي سند، عندما أصبح تراباً من كان منذ برهة ملكاً جليلاً ؟

اللقيط (يلتفت الى الجثة) : ها قد رحلت عنا اخيراً. انا غير باقٍ من بعدك إلّا لأقوم بواجب الشعائر اللائقة بك ولآخذ بثأرك. عندئذ ستتبعك روحي الى السماء لتساعدك هناك أيضاً كما كانت لك خير عون على هذه الارض. (للوردات) وأنتم أيها الكواكب الساطعة الآن، وقد دخلتم في عصمة الشرعية، أين قواتكم؟ أثبتوا عودة ولائكم لمن كان مولاكم، وهبّوا معي الى التعويض عن الاسى والذل اللذين لحقا بوطننا الممزّق. فلنبادر بسرعة إلى الهجوم على اعدائنا قبل أن يبدّدنا زحفهم. فوليّ العهد تغلي مراجل حقده وسخطه بسببنا، وهو على وشك الانقضاض علينا لتشتيت صفوفنا.

سالزبري : يبدو انكم لستم مطّلعين على حقائق الأمور اكثر منا. فالكردينال بندولف يرتاح في الدير منذ نصف ساعة. وقد غادر وليّ العهد منذ قليل وهو يأتينا من قبَله باقتراحات سلْم لا يسعنا ان نرضى بها إلّا مرغمين، ونظراً الى الفوائد التي يجنيها الامير وليّ العهد، أعلن أنه على أتمّ الاستعداد لمغادرة ساحة القتال.

اللقيط : وسيكون استعداده اتمّ اذا علم بأننا متحصّنون ومتأهّبون للدفاع على أكمل وجه.

سالزبري : هذه مسألة قائمة بذاتها. فقد ارسل عدداً لا بأس به

من ناقلات الجند الى الشاطئ وربط قضيته وخلافه بقرار الكردينال. واثناء بعد ظهر اليوم، اذا وجدتم الظرف مناسباً، سنبادر الى الذهاب لمقابلة من يمكننا، انا واللوردات، أن نُجري معهم هذه المفاوضات التي نأمل بأن تكون نهايتها سعيدة مرضية.

اللقيط : حسناً. (لهنري). وأنت، أيها الأمير النبيل، برفقة الكبار الذين لا يستحسن غيابهم، سنرافق معهم موكب جنازة أبيك.

هنري : لا بد من دفن جثمانه في ورْسسْتر حسب آخر توصياته.

اللقيط : يجب علينا إذاً أن نحمله الى هناك. بعدئذ، على شخصيتك المحبوبة ان تؤمّن السلطة الوراثية بشكل ملائم حفاظاً على مجد بلدنا. وها انا اجثو على ركبتيّ وأضع بتصرّفك جهودي المخلصة ومودتي الصادقة غير المحدودة.

سالزبري : وهكذا نعرض نحن عليك صافي حبنا الذي نعدك بأن لا تشوبه شائبة.

هنري : عواطفي الرقيقة تأبى عليّ إلّا أن أشكرك. وها هيذا دموعي خير شاهد على صدق ما أقول.

اللقيط : علينا ان لا ندفع لدهرنا إلّا المقدار اللازم من تضحياتنا وآلامنا. لأنها أخذتْ من أحزاننا سلفاً ما فيه

الكفاية. لم تسقط انكلترا ابداً حتى الآن، ولن تسقط أبداً في المستقبل تحت أقدام أيّ فاتح مهما كان عظيماً، إلّا اذا ساعدته هي ذاتها على انزال الضربة القاضية على كيانها. والآن، وقد عاد رؤساؤها الى صوابهم واستأنفوا ولاءهم لها، يسع ثلاثة ارباع الدنيا ان تتألّب علينا وتصوّب سهامهاالينا غير أننا سنتكاتف ونتحدّاها ونتغلّب عليها. ولن يحلّ بنا أي سوء بعد الآن، طالما ظلّت انكلترا وفية وامينة بحق ذاتها.

(يخرجون).

(تمت)

توزيع دار الجيل